مأمون غـــريب

الامـــام الشعـــراوى

وحقـــائق الإســـلام

مكـــتبة غـريب

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومآآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

أوافق على نشر هذا الكتاب
الذى سبق نشره فى مجلة [illegible]
جزاه الله وجزاكم خيرا

محمد الشعراوى

موافقة الشيخ محمد متولى الشعراوى على نشر هذا الكتاب

مقدمـــة

فضيلة الشيخ محمـد متولى الشعراوى داعية من أعمق الدعاة الـذين عرفهم الفكـر الإسلامى . . فقد أعد نفسه لهذا الدور من خلال قراءاته المتعددة فى مختلف العلوم بجانب تعمقه لعلوم القرآن وإلمـامه بمختلف التيارات الفكرية والفلسفية . . ومن هنا فقد نال شعبية كاسحة لأنه يخاطب العقل والقلب . . ولا يردد كلمات محفوظة فقدت حيويتها وقدرتها على الإقناع من كثرة ترديدها . .

فقليل من الدعاة هم الذين استطاعوا أن ينفذوا إلى قلوب الناس وعقولهم لأنهم أتوا بجديد . . وكانت لهم من سعة الأفق ، والقدرة على الاستنبـاط ما جعلهم ملء الأسـماع . . وعـاشت كلماتهم لأنها تحمل مضامين مستنيرة لا كلمات لا معنى لها كالطبل الأجوف . .

وما أكثر الأسماء التى وعتها ذاكرة التاريخ الإسلامى من أعلام قدموا الكثير فى الفكر الإسلامى ، وكان لاجتهادهم أثر ملموس فى مختلف العصـــور . . فى الفقـــه والتشريع والتفسـير . . وفى الفكـر الإسـلامى . . من أمثال الأئمة الأربعة : مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل . . وأيضا هناك من عاشوا فى وجدان الناس لما تركوه

من فكر مستنير من أمثال الإمام الغزالى ، والليث بن سعد . . وفى العصر الحديث لا يمكن نسيان الإمام محمد عبده ، وأستاذه جمال الدين الأفغانى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ الخضر حسين ، والدكتور عبد الحليم محمود . . وأيضا أعلام الفكر المعاصر الذين تصدوا للمستشرقين ، وكتبوا فى الإسلاميات من غير رجال الأزهر كطه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل وغيرهم .

ولقد لفت الشيخ محمد متولى الشعراوى نظر الناس إليه بمجرد أن ظهر على شاشة التليفزيون . . فقد رأوا فى فكره شيئا جديدا . . مختلفا عما تعودوه . . وألفوه . . ومن هنا أقبل الناس على سماعه والانتفاع بعطائه الثرى وفكره الواعى . . وهو يقدم حقائق الإسلام بأسلوب سهل وعميق فى نفس الوقت . .

وقد حاولت هنا أن أقترب من فكر الشيخ . . وأن أعطى للقارىء صورة لهذا الفكر . . من خلال كتاباته ومحاضراته . . ومن خلال لقاءات معه حتى تعم الاستفادة من هذا العلم الزاخر وبالتالى حتى يعرف ثراء الفكر الإسلامى ، وقدرته على الأخذ بيد الأمة الإسلامية ـ لو أحسنت فهمه ـ إلى حياة جديدة . . حياة تتسم بالقوة والتقدم والازدهار . . فديننا يدعو إلى كل ما يثرى حياة الإنسان والمجتمع . . وكل ما ينفعه فى دنياه وأخراه . . إنه دين الحضارة والمدنية والأخذ بكل الأسباب التى تفضى إلى حياة ناهضة ، ومستقبل أكثر أملا وإشراقا وإنتاجا . .

فقد قاد الإسلام العالم كله نحو التقدم والازدهار ، وبسبب حضارة العرب والمسلمين نهضت أوربا من ظلام العصور الوسطى ، وعندما تقدمت حضارتها وارتقت علومها ، ودفعتها القوة إلى السيطرة

والاستعمار للبحث عن أسواق لتجارتها واستنزاف موارد الدول الأخرى ، ووقعت كثير من الدول الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار الأوربى ، كان الإسلام من أهم الركائز التى جعلت المسلمين يصمدون لقوى البغى ، وهو الذى حركهم للوقوف ضده ومناهضته ، بل إن الدين عصم الأمم الإسلامية من أن تفقد هويتها ، وتذوب فى حضارة الأمم المنتصرة . . فقد تمسكت بما غرسه الدين فيها من تعميق روح النضال ، وعدم الاستسلام للطغاة والأخذ بأسباب التقدم ، وامتلاك نفس الأسلحة التى يملكها العدو لاستعادة مكانتها . . ولم يكن الدين مطلقا عامل تخلف لأن المسلمين بالإسلام أقاموا أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ تمتد من الصين حتى الأندلس . . وما تخلفوا إلا بعد أن أداروا ظهورهم لهذا الدين . .

ولقد عرف الفكر الإسلامى الكثير من التيارات عندما احتك ببعض الحضارات الأخرى . .

وكثير من هذه التيارات بعيدة عن روح الإسلام وعن جوهره . . وبعض هذه التيارات وقد تأثرت بالفلسفة اليونانية ، ثم تأثرت بالفلسفات الأخرى فيما بعد . . أبعدت معتنقى هذا الفكر عن الإسلام الصحيح فى بساطته وتوافقه مع الفطرة . . بجانب ما لعبته السياسة فى تشجيع بعض التيارات الفكرية التى تتلاءم مع مصالحها ومحاربة تيارات أخرى مما نجم عن ذلك العديد من التيارات فى الفكر الإسلامى ، وخاصة فى العهد الأموى والعباسى مما وسع دارة التيارات الفكرية ، وظهور العديد من الأفكار . . التى اعتمد بعضها على العقل ، وبعضها على النقل ، . . والبعض الآخر عن الموازنة بين العقل والنقل . . كالمعتزلة وأهل السنة والأشاعرة . . بجانب تيارات

أخرى أسرفت كل الإسراف على نفسها . . وانحرفت عن الجادة والصواب . . حتى أن غالبية المسلمين وجدت أن النجاة هى بالتمسك بالكتاب والسنة . . وهجر هذه التيارات والفرق التى أدت إلى بلبلة العقول والأفكار ، ومحاربة الفلسفات التى لا تؤدى إلى طريق واضح المعالم ، بين القسمات . . أو على حد تعبير الإمام الرازى وهو يصور قصور العقل فى حل معضلات الوجود : .

- « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا » . .

وربما لأن المعتزلة أسرفوا فى الاعتداد بالعقل ، فقد هاجمهم أهل السنة . . على أساس أن العقل لا يحل محل ما أنزل الله فى كتابه العزيز . . مهما تذرعت المعتزلة بأن العقل يقوم بدور تفسير النصوص ، أو على حد تعبير الدكتور عبد الحليم محمود وهو يتحدث عن (المحاسبى) وهجومه العنيف على المعتزلة . . حتى أنه ألف كتابا خاصا فى الرد عليهم سماه (فهم القرآن) . . أنه رأى فى نزعتهم العقلية طغيانا لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى أن نزعتهم تحكم العقل فى القرآن وتجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد فى الحقيقة وواقع الأمر هو العقل لا الكتب المقدسة . . وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل فى دفاعهم المجيد عنه ، ورد هجمات أعدائه ، وتأييده منطقيا وعقليا ، فإنه مما لا شك فيه أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم ما وراء الطبيعة فيفسر لنا غامضه ويوضح لنا من أمره ما أبهم . . لابد إذن أن يخضع العقل للنص . . ومذهب المعتزلة لا يسير فى عالم ما وراء الطبيعة على النهج الصواب .

وإذا كانت مشكلات الفلسفة وتأثيراتها التى كانت موضع اهتمام المفكـرين والدعاة إلى الله إذ ركز الإمام الغزالى هجومه العنيف على الفلسفة ، ففى العصر الحديث ظهرت مشاكل أخرى أعنف وأكثر خطورة، وهى ما يوجهه المستشرقون للإسلام من هجمات شرسة . . باسم البحث العلمى حينـا، وبـاسم المـوضـوعية أحيانـا أخـرى، ومحـاولاتهم المستميتة للنيل من الإسلام ومحاولة تجريحه بشتى الطرق بغرض زعزعة الثقة به . . وإذا كان قد تصدى لهم بعض المفكرين الاسـلاميين ، فلا شك أن الشيخ محمـد متولى الشعراوى فى ردوده عليهـم . . وتـوضـيح نياتهم قد أوضـح خبث نواياهم . وأبـان مقـاصـدهم ، ووضع أفكارهم تحت المجهر . . وبين للناس زيف ادعاءاتهم بأسلوب سهل ومبسط وعميق فى نفس الوقت . . معتمدا على المنطق . . ومقارعة الحجة بالحجة . . فإذا به وقد وضعهم فى حجمهم الـطبيعى مع الـذين يرددون كالببغـاوات هذه الأفكـار السقيمة . . أو على حد تعبيره :

ـ « إذا كان المستشرقـون قد نشـطوا منـذ وقت بعيد فى دراسة الإسلام ومتابعة سيرته الطويلة عبر أربعة عشر قرنا ، لا يتركون جانبا من جوانبه إلا قتلوه بحثا واستقصاء وتحليلا ، تحركهم أحقاد سوداء وثارات قديمة . . وآمال عريضة فى تطويقه ومحاصرته إن لم يتيسر لهم القضاء عليه ، إذا كان هذا شأن المستشرقين فإن دور علماء المسلمين إزاء هذا لم يكن بالحجم المـأمـول أو القيمة الموازية ، مهما اختلفت الآراء فى قيمة هذا الدور » .

ويقـول الشيخ الشعـراوى أيضـا حول المتغيرات الجديدة التى نشأت فى المجتمعات لحديثة ، وضرورة تغيير أساليب الرد على هؤلاء المستشرقين . .

إن أعداء الإسلام ينفثون سموما جديدة ، سموما غير تقليدية أو مألـوفـة . . تستمـد عناصرها ومكوناتها من المتغيرات الاجتماعية المـواكبـة للمـد البشرى ، ومـا أحدثته هذه المتغيرات من تناقضات جسيمة فى العلاقات والسلوك ، وهو أمر يتطلب من علماء الإسلام اليوم التصدى لها برؤية علمية موضوعية يمكن أن تقطع الطريق على كل هذه النـوايا . . رؤية جديدة تعـرض القيم الإسـلامية بـروح جديدة متجـددة ، تكبح جماح هؤلاء المستشرقين وتحد من أهدافهم الخفية ، فلا جدوى الآن من المـدرسة التقليدية فى عرض الإسلام والتعريف به . .

فالشيخ الشعـراوى يرى أن يكـون التعـريف بالإسلام بطرق مستنيرة . . وليست بالطرق الخطابية الانفعالية . . وفى الوقت الذى يقوم فيه منهج الشيخ الشعراوى على تحقيق هذا الهدف ، فهو فى نفس الوقت يحذر من دعاة الاستغراب . . الذين بهرتهم حضارة الغرب ، فأصبحوا دعاة له . . دعاة بأن تقوم حضارتنا على الأسس المادية التى قامت عليهـا حضـارة الغرب . . ونسى هؤلاء فى غمرة حماسهم أن بعض مفكـرى الغرب نفسه قد حذر من آثار هذه الحضارة الغربية المدمرة ، التى وفرت للإنسان الحياة المادية المرفهة ، وفى نفس الوقت جرعتـه سمـوم القلق والتوتر ، وعدم الاستقرار ، وأورثته الأمراض النفسية المدمرة . . وجعلت من الجنة المادية جحيما لا يطاق ، لأنهم نسوا فى غمرة صراعهم المادى اللاهث قيم الروح .

كما أن الشيخ الشعراوى جعل من مهامه أن يوضح أنه لا تناقض على الإطـلاق بين الانـطلاق العلمى ومنهـج الإسلام فى دعوته إلى

التقدم والأخذ بالأسباب دون أن ننسى أن خالق الأسباب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . . وأننا ونحن نأخذ بالأسباب . . لا ننسى أن نتجه بكل كياننا إلى خالق الأسباب . . ليهدينا سواء السبيل . .

مأمون غريب

(١)

الشـعراوى مفكـرا

الشيخ محمـد متـولى الشعـراوى داعية إسـلامى كبير . . وقد اكتسب شعبية كبيرة . . كما نال إعجاب المثقفين لمنهجه فى الدعوة إلى الله . . كما نال إعجاب الرجل العادى . .

فهـو عالم يتحـدث بلغـة سهلة وعميقـة فى نفس الـوقت . . وقد ساعده على ذلك تمكنه من اللغة تمكنا عجيبا ، بجانب قراءاته المتعددة فى مختلف العلوم . .

فهو عندما يتحدث فإنما يتحدث بلغة العصر . . أى أنه إنسان يعيش منجـزات هذا العصر . . وتقدمه العلمى والحضارى وقفزاته التكنولوجية . . فإذا ما تناول قضايا الدين يضرب الأمثلة بما يراه من صور العصر ، مقـارنا وموضحا أن الإسلام هو دين العلم والتطور والحياة . . كما أنه دين تقرب وطاعة وعبادة لله جل علاه .

وهو عندما يفسر آيات القرآن الكريم ، ويعرض لنا خواطره حول القرآن الكريم . . كما تحلو له هذه التسمية . . ربما تواضعا منه . .

فإنه يستخدم كل الوسائل التى تجعل هذا التفسير يصل إلى القلب والعقل معا . . فهو يستخدم المنطق . . واللغة . . ويستعرض مختلف الآراء . . فإذا بهذا التفسير يتلقاه السامع باقتناع كامل . .

ونحن نعرف أن هناك قضايا لابد أن تستخدم العقل حتى يقنع السامع بها يسمع من آراء . . كما أن هناك قضايا غيبية علينا أن نؤمن بها ، ما دمنا قد آمنا بالله . . وهى صادرة عن الله . . فلابد أن نؤمن بها إيمانا غيبيا لأنها قضايا فوق مستوى العقل والإدراك . . وهذه القضايا قد يخفى علينا مغزاها أو الهدف منها . . أو قد نعجز عن إدراك أسرارها . . ولكن هذه القضايا التى نعجز عن فهمها اليوم . . قد يكشف الستار عنها فى مستقبل الأيام . . فما أكثر القضايا التى لم تكن مفهومة فى الماضى . . وأصبحت واضحة المعالم فى هذا العصر لأن القرآن الكريم لا يبوح بكل أسراره فى عصر واحد . . ولكن أسراره تظهر فى كل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . وهذا أحد أسرار إعجازه . .

رؤية الشيخ الشعراوى

وإذا كان الشيخ محمد الشعراوى يهاجم الفلسفة ، ويرى أنه لا طائل من ورائها ، على أساس أن الفلسفة تعتمد على العقل ، والعقل يخطىء ويصيب . . بينما الدين يعتمد على الوحى ، والوحى لا يخطىء لأنه معصوم . .

رغم ذلك فالذى يقرب من فكر الشيخ الشعراوى يشعر أنه قرأ الفلسفة وقرأ علم الكلام ، وتعمق فى هذه المذاهب الفلسفية

والكلامية ، لأنه عندما يعارض هذه المذاهب العقلية التى تعتمد على العقل اعتمادا كليا ، يوجه نقده اعتمادا على دراساته لهذه الفلسفات ، وتعمقه لها ، ثم اكتشافه لما فيها من زيف . .

وكثيرا ما يحضرنى الإمام الغزالى الذى درس الفلسفة دراسة عميقة متأنية ، ثم هاجمها هجوما عنيفا فى كتابه (تهافت الفلاسفة) الذى يبين ما فى الفلسفة من بعد عن الحقيقة ، حتى أننا نرى الأستاذ (بلاسيس) وهو يشرح منهج الغزالى وهجومه على الفلاسفة ، يوجز حقيقة فكره فيقول :

ـ إن الغزالى حين سمى كتابه (تهافت الفلاسفة) كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعا يشبه نور الحقيقة انخدع به فرمى نفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطىء مخدوعا بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما هلك البعوض . .

وهذا يعنى أن الإمام الغزالى يرى أن الفلاسفة خدعوا بأوهام الفلسفة فهلكوا . .

والشيخ الشعراوى يرى أن التعقل شىء . . والتصور شىء آخر . .

وهو كثيرا ما يضرب هذا المثل الذى يبين إلى أى حد يقف العقل عند حدود لا يتعداها . .

فنحن بالعقل نعرف مثلا عندما يدق الباب أن هناك شخصا ما وراء هذا الباب هو الذى دق الباب . . ولكن كيف نتصوره . . ؟

هنـا ينتهى دور العقل . . فأنت لا تعرف أن الطارق رجل أم امرأة . . طويل أم قصير . . فلان أو علان . . فأنت هنا تقف عاجزا تمامـا عن تصور الطارق . . ولا تتضح لك الحقيقة إلا عندما تفتح الباب وترى الطارق . .

وهـذا المثل يضربه الشيخ محمد متولى الشعراوى كثيرا ليوضح للسامع مدى قدرات العقل والحدود التى يجب أن نعرف أنه لا يتعداها . .

فنحن بالعقل ندرك أن وراء هذا الكون إلها أبدعه وخلقه . . لأن كل شيء فى الكـون له قوانـين يسـير عليهـا . . ولا يخضـع أبـدا للصـدفـة . . لأن الصـدفة لا قانون لها . . فالله موجود . . حقيقة يدركهـا العقل جيدا . . وقد توصل إليه حتى فلاسفة الإغريق . . فقالوا أن وراء هذا الوجود علة له . . لكن هذه الفلسفة الإغريقية أيضا فلسفة ملحدة . . أو فلسفة وثنية . . لأن من هؤلاء الفلاسفة من يرون أن وراء الوجود علة . . وهو الله . . ولكن الله صانع الكون وليس خالقا له . . أى أن الله موجود . . والمادة موجودة . . والله لم يخلق العالم من عدم . . إنما خلقه من هذه المادة الموجودة منذ القدم . .

وهم بهذا إن كانوا قد توصلوا إلى الله بعقولهم . . إلا أنهم أشركوا بالله ولم يقـدروه حق قدره . . وقد يكون عذرهم أنهم لم تأتهم رسالة سماوية . .

ولكن كيف نعرف الله . . ؟

نعرف الله بالله . .

أى أنـه عن طريق الوحى لأنبيائه يعطى الله للبشر ما يجب أن يعرفوا عنه . . وعن قدرته وذاته وصفاته . . فى الحدود التى يعقلونها . .

وما أصدق الإمام الرازى . . عندما صور لنا حدود العقل بقوله :

نهايــة إقــدام العقــول عقــال
وأكثــر سعى العــالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جعلنـا فيه قيل وقالوا

التصدى للمستشرقين

وإذا كان الشيخ الشعراوى يدرك دوره كداعية يملك كل أدوات المعـرفة والإقناع ، فإنه لم يغب عنه أن يتصدى للمستشرقين هؤلاء الــذين طالمـا كادوا للإسـلام . . وإذا كانت هنـاك قلة من هؤلاء المستشرقين كان لهم دور بارز فى إظهار التراث العربى والإسلامى . . كما أن منهم أيضا بعض الذين أنصفوا الإسلام ونبى الإسلام إلا أن الاستشراق لم يقم أساسا على أن يخدم الإسلام ، ولكن الاستشراق كان الهدف منه دراسة الإسلام . ومحاولة إيجاد الثغرات التى يهاجمونه بها ويشككـون فيه . . وربـما كان الـدافع وراء كتابات العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل الإسلامية هو التصدى لهذا التيار الذى حاول أن يشوه عقيدة المسلمين . .

والآن يتصدى لهم بمنطق موضوعى الشيخ الشعراوى وهو يقول :

ـ لا ينكـر أحـد أن كثيرا من علماء المسلمين قد تصدوا لهؤلاء المستشرقين وعارضوا آراءهم فى أسفار ضخمة وعديدة تئن بها المكتبة العربية مدافعين عن الإسلام وقيمه . . متصدين لسموم المستشرقين بالحجة الدامغة والرأى السديد والبرهان الساطع . . لكن لكل مرحلة وكل آونة ظروفها ومتطلباتها ، فمستشرقو اليوم غير مستشرقى الأمس البعيد أو القريب . . وإن توحدت نواياهم . . وليس من المعقول أن نواجه مستشرقى اليوم بنفس الأساليب التى واجهنا بها مستشرقى الأمس . .

سموم أعداء الإسلام

ويقول الشيخ الشعراوى أيضا :

ـ إن أعداء الإسلام ينفثون سموما جديدة ، سموما غير تقليدية أو مألـوفـة . . تستمـد عناصرها ومكوناتها من المتغيرات الاجتماعية المواكبة للمد البشرى وما أحدثته هذه المتغيرات من تناقضات جسيمة فى العلاقات والسلوك . . وهذا أمر يتطلب من علماء الإسلام اليوم التصدى لها برؤية علمية موضوعية يمكن أن تقطع الطريق على كل هذه النـوايا . . رؤية جديدة تعـرض القيم الإسـلامية بروح حسية متجددة تكبح جماح هؤلاء المستشرقين وتحد من أهدافهم الخفية . . فلا جدوى الآن من المدرسة التقليدية فى عرض الإسلام والتعريف به والتى تعتمـد أكثر ما تعتمد على الإحساس المندفع والخطابة المفرغة دونما ارتكاز على موضوعية ما . .

الموقف الآن يتطلب دراسة ومدرسة جديدة لها سماتها الخاصة وعلماؤها ذوو الرؤية الجديدة . . . مدرسة تقوم من الآن بعرض الإسلام عرضا هادئا بعلمية متمكنة وموضوعية محددة . .

ويتابع الشيخ الشعراوى كلامه فى مقدمته لكتابه (هذا هو الإسلام) بين المنهج الذى يجب أن يسلكه الداعية فى هذا العصر، والأسلحة التى يجب أن يتسلح بها حتى يستطيع أن يكون له دور إيجابى فى هذا العصر فيقول :

ـ أما المحور الثانى الذى يواجه الإسلام والذى يتمثل ـ كما أسلفنا ـ فى محاولات المستغربين ـ وإن كانوا قد تنكروا لدينهم الذى ارتضوه نتيجة للصدفة العفوية التى تولدت من إحساسهم باتساع الهوة بين حضارتين متباينتين . . فإن أمرهم يقل خطرا عن أمر المستشرقين . . فهو لا يعدو أن يكون مجرد فقدان ثقة فى قدرات الإسلام كدين يمكن أن يطرح بحدوده ومعاملاته مثالا قريبا للحضارة الغربية ، أو على الأقل ينهض بدياره المتداعية وينشلها من هاوية التخلف والهوان ، مسألة فقدان الثقة هذه يمكن معالجتها بتبصير هؤلاء الأبناء الذين اهتزت عقائدهم نتيجة لما أسلفنا بقدرات الإسلام العظيمة فى بناء الإنسان بناء متكاملا والذى هو صانع كل الحضارات قديمها وحديثها . .

على المدرسة الجديدة ـ فى تناولها للإسلام ـ أن تجد لنفسها خطا واضحا تواجه به هؤلاء المستغربين كما واجهت المستشرقين . . خطا يعرض الإسلام فى إطار رحب من خلال موقف بين مشكلاتنا الاجتماعية المستعصية والتى طفت على سطح حياتنا نتيجة للمتغيرات المتلاحقة ـ خطا يعرض الإسلام فى إطار الأنظمة السائدة كالاقتصاد

والسياسة والملكية وقانون العمل والاجتماع والدولة والأسرة والإعلام والثقافة والفنون بألوانها . .

إن انتصار الإسلام يتحقق بتحديد موقفه من قضايانا المعاصرة التى لم يفلح علماؤنا حتى الآن فى التوفيق بينهما وبين الإسلام . . وكأن الإسلام دين عقيدة وليس له صلة بالمعاملات أو شئون العباد . . وإذا كان بعض علمائنا قد تعرض لبعض المشكلات وحاول أن يجد لها حلولا دينية ، فإن النظرة كانت قاصرة استحدثت من المشاكل الفرعية أكثر مما عالجت . .

إذا استطعنا أن نقيم وئاما دائما بين الإسلام كدين وبين أنماط حياتنا السائدة ، فإننا نكون قد حققنا للإسلام تواجدا فعليا .

تحديد موقف الإسلام

والشيخ الشعراوى يرى أيضا :

إذا استطعنا أن نتخلص من نظامنا الاقتصادى الغريب ونقيم على أنقاضه نظاما إسلاميا ، إذا استطعنا أن نحدد موقف الإسلام بشجاعة وصراحة من عمل المرأة الآن ، والاختلاط وتعدد الزوجات ، إذا استطعنا أن نحدد موقف الإسلام من الإعلام ووسائله ، والترفيه وأبعاده . . والسياحة وضروراتها ، إذا استطعنا أن نحدد الموانع التى تحول بين تطبيق أحكام الله وإقامة الحدود . . إذا استطعنا هذا كله أمكننا أن نحقق التواجد الفعلى للإسلام ، ويصبح فى الإمكان إعادة الثقة فى نفوس الأجيال المتمردة من شبابنا فى إمكانيات الإسلام ، وقدراته الفائقة كدين صالح لكل زمان ومكان . .

ويرى الشيخ الشعراوى أن المحور الثالث الذى يواجه الإسلام مواجهة مستمرة ومتغيرة يوما بعد يوم هو الإنجازات العلمية فى كثير من الميادين ، فهذه الكشوف العلمية قبل أن تصطدم مؤقتا ـ قبل التوفيق ـ برؤية قرآنية مغايرة مما يولد كثيرا من الشك فى صميم العقيدة . . وهذا المحور لا يجب الاستهانة به ألبتة . . ويجب أن يواجه بالرؤية العلمية التى ستجد فى كتاب الله من العطاء والغنى والمسايرة ما يخدم الإسلام فى هذا الموقف . .

إن كتاب الله (دستور الإسلام) صالح لكل زمان ومكان . . ولم يضع مفسرونا الأجلاء أيديهم على كنوزه . . ولم نقل الكلمة الأخيرة فى مراميه وأقواله . . ولن يتوقف عطاؤه إلى أن تقوم الساعة . . وإلا فماذا يجد فيه علماء القرن الثلاثين ومن يليهم . .

هذا المنهج الذى يراه الشيخ واجبا على الداعية حتى تؤتى دعوته ثمارها منهج علمى وواقعى وموفق . . فإن الإسلام يحارب بالفعل من المستشرقين . . وهذا يوجب على الداعية أن يتعرف بأساليبهم . . ويكون على بينة من اتجاهاتهم حتى إذا ما تصدى لهم بموضوعية وعلم . . حينئذ تبطل حججهم . . ولا تعود كلماتهم لها أى صدى . . بل تموت أغراضهم فى مهدها ولا تجد إلى العقل أى طريق .

كما أننا نعيش فى عصر التقدم العلمى المذهل الذى وضع الإنسان فيه أقدامه على القمر ، وأرسل سفن الفضاء تجوب الفضاء علها تعرف أسرار ما يحيط بنا من عوالم . . عصر الفضاء والكمبيوتر والألكترونيات . . لا ينبغى أن يواجه هذا العالم بأسلوب عفا عليه

الزمن ، أو بترديد كلمات بلهاء تصطدم مع العقل ومعه التقدم العلمى أو بالجرى وراء خرافات ما أنزل الله بها من سلطان . . فما أكثر ما نسمع من بعض الدعاة خطبا ومواعظ إذا كانت تنفع ولها جدواها فى عصور سابقة فإنها لا تنفع على الإطلاق فى هذا العصر ، بل إنها تقابل من المثقفين بالسخرية والاستهتار لأن مثل هذه الخطب لا تعتمد على كتاب الله ولا على السنة الشريفة ، ولكن فيها الكثير من الخرافات التى دست على الفكر الإسلامى فى عصور التخلف والهوان . .

فإذا بحكايات تروى وخرافات تقال . . ويدس كل ذلك بين صفحات الكتب التى قد تمتلىء بجانب ذلك ببعض الإسرائيليات . . مثل هذه المواعظ لا تجدى فى عصرنا هذا . . بل يجب أن ننقى التراث من كل الشوائب التى علقت به فى أزمة الانحطاط الثقافى ولا نضرب للناس إلا الأمثلة المستنيرة الواعية التى تصل إلى القلب والعقل جميعا . .

علماء الإسلام والرؤية العلمية

وإذا كان الشيخ محمد متولى الشعراوى يرى أنه لابد من التوفيق بين الإنجازات العلمية والإسلام ، فهى دعوة بالفعل مستنيرة ومهمة يجب أن يعرفها ويعيها تماما كل من يتصدى للفكر الإسلامى بالبحث أو الدراسة أو نشره بين الناس . .

والإسلام لا يتنافى مع الحقائق العلمية . . وإن كان قد يصطدم بالنظريات العلمية . .

والنظرية العلمية شىء . .
والحقيقة العلمية شىء آخر . .

النظرية العلمية قد تتغير مع الزمن . . ولا تصل إلى درجة الحقيقة . . فقديما قالوا أن الذرة لا تفتت . . واليوم نعرف أن أى طالب فى مدرسة ثانوية يعرف أن هذه النظريات لم يعد لها نصيب من الصحة بعد أن تفتت الذرة . .

الإسلام لا يتنافى إذن مع الحقائق العلمية . . لأن قوانين الكون تسير فى طريقها . . ولا يستطيع أن يخرق ناموسه إلا خالق الكون . . فقانون الجاذبية مثلا كان موجودا قبل أن يكتشفه نيوتن . .

ولكن نيوتن هو الذى اكتشف هذا القانون . .

والأثير موجود كغرض علمى منذ الأزل . . ولكن استغل عندما اكتشفت موجات الإذاعة والتليفزيون . . وهكذا فأى اكتشاف علمى أو تقدم علمى لا يمكن أن يتنافى مع الحقيقة القرآنية . .

وهنا يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى :

ـ والواجب الآن إزاء هذه الكشوف العلمية التى يحققها الإنسان فى كثير من المجالات وتصطدم أو تتعارض مؤقتا بالرؤية القرآنية ـ أن يتزود العلماء المسلمون بالرؤية العلمية وأن يناظر العلم علم مثله ، وأن تجب الحقيقة حقيقة مثلها . . ولا ضير من معاودة النظر فى كتاب الله ومراميه على ضوء المجهر العصرى ، وستبدو النظرية العلمية ـ إذا كانت حقيقة علمية منسجمة ومتمشية مع أصلها القرآنى غير معارضة له أو مصطدمة به . . أما إذا تعارضت النظرية صراحة ولفظا مع أصلها القرآنى فلابد أن تكون غير صحيحة ، ولابد أن يقال عنها أنها

غير (حقيقة علمية) والأيام قادمة والبحوث حولها لها الفرصة كاملة فى إبداء القول الفصل فى سلامتها أو زيفها . . وسيكون كتاب الله قد تنبأ بزيفها أو بطلانها ، مما يفيد ولا يفسد ، ويمكن أن يقال فى معرض هذا القول أن كثيرا من الاكتشافات العلمية ما زالت معلقة لم يقل العلماء رأيهم فيها بعد . . ولم يزيلوا الالتباس القائم فى الأذهان حولها . .

كما يرى الشيخ أيضا أنـه يجب التصدى للمستغربين . . الذين بهرتهم حضارة الغرب ، دون أن يدرسوا دينهم دراسة عميقة متأنية فبهرتهم القشور ولم يعرفوا الجوهر فضلوا وأضلوا . .

إذن فالشيخ الشعراوى يريد أن يكون الدعاة على مستوى العصر ومنجـزاتـه ، وأن يكـونـوا على إلمام بخطوط حضارته وثقافاته لا أن يفاجئوا الناس بأسلوب بعيد عن روح العصر . . وعن روح العلم . . كتاب الله وسنة الرسول الصحيحة ليس فيها ما يتنافى مع العصر ، ولا أى عصر . . فالإسلام هو دين العلم والحضارة والمدنية . . وهو يحث كل إنسان أن يتأمل الكون ويدرس ما فيه من ظواهر . . أى أن على المسلم أن يقرأ القرآن ويعرف دستور دينه . .

ويقرأ كتاب الكون ليرى عظمة الله وجلاله متمثلا فيما خلق . .

المخاطبة بلغة العصر

والشيخ الشعـراوى نفسـه يخاطب الناس بلغة العصر . . فقد سلح نفسه بأسلحة العلم المختلفة . . قرأ كثيرا وتأمل كثيرا . . ومن هنا فقد لفت الأنظار إليه بشدة عندما رآه الناس لأول مرة على شاشة

التليفزيون . . فإذا بالمشاهد وهو يسمع له لأول مرة يرى نفسه أمام داعية من نوع فريد . .

أسلوب سهل ممتنع . .
تعمق فى اللغة . .

إلمام بعلوم العصر وإنجازاته وفلسفاته . . تمكن من التراث . . تذوق الشعر والأدب . . أى أن المشاهد وجد نفسه أمام لون جديد من الدعاة .

ليس هؤلاء الذين يرددون كلمات محفوظة عن ظهر قلب . . ولكن يرون رجلا يتصدى للمشاكل المعاصرة وموقف الإسلام منها مستنبطا ومجتهدا . . ومحاولا تقريب كل ذلك إلى الأذهان . . فإذا بهم يستقبلون من الشيخ هذا الأمر بسهولة ويسر .

وبنفس الطريقة أخذ الرجل يفسر القرآن الكريم، أو كما يسميها هو - خواطره نحو القرآن الكريم، فأتى فعلا بتفسيرات مستنيرة ، والعجيب أن المستمع إلى الشيخ حتى من الذين لا يقرأون يستمتع بدرسه بنفس القدر الذى يستمتع به المثقفون . .

ولا أعرف لماذا تتداعى إلى ذهنى دائما وأنا أستمع إلى الشيخ الشعراوى وموسوعيته الإمام الغزالى الذى قال عن نفسه :

- ولم أزل فى عنفوان شبابى - منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين حتى الآن . .

قال هذا الكلام وهو فى سن الخمسين ، « أقتحم لجة هذا البحر العظيم (يقصد البحث عن الحقيقة) وأخوض غمرته خوض

الجسور . . لا خوف الجبان الحذور . . وأتوغل فى كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة ، وأهجم على كل ورطة ، وأتفحص فى عقيدة كل فرقة . وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لا أميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع . .

لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته . .
ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته . .
ولا فلسفيا إلا وأقصد على كنه فلسفته . .
ولا متكلما إلا واجهته فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . .
ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على صوفيته . .
ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته . .
ولا زنديقا إلا وأتحسس ما وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته . .

بين الغزالى والشعراوى

ولست بالطبع أوازن بين الإمام الغزالى والإمام الشعراوى ، لبعد الشقة التاريخية بينهما من جهة ، ولأن كلا الإمامين كان له طريق مختلف فى الدعوة . .

فالإمام الغزالى قطع مرحلة طويلة فى قراءاته المتعددة ، ثم بدأ رحلة البحث عن اليقين بعد أن أرقه الشك . . وأتعبه التفكير . . وحرقته نار الحيرة حتى هداه الله . . واتخذ الصوفية طريقا إلى الله . .

ولكن المقارنة فى أن كليهما درس علوم عصره وفلسفاته وتراثه أيضا فأعانته هذه الأسلحة التى تسلح بها على أن يخوض بها ميدان جهاده

الفكرى لنشر الدعوة ، وتبصير الناس بها ، وجعلهم يفهمون أمور دينهم على أسس مستنيرة . . وليس لمجرد التقليد . .

ومن هنا كان الإمام الغزالى يقول :

- قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله . وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى . . حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا . .

ونرى الشيخ الشعراوى يرى أن الذى يسعد الإنسان هو أن تلتقى حركته مع هدفه ، فإذا لم تلتق الحركة مع الهدف كان لابد أن يوجد القلق والاضطراب .

والحركة والهدف أمران يحتمان وجودهما على تصرف العقلاء المفكرين ، فكل حركة حياة لابد أن يكون لها هدف . . هذا الهدف ما الذى يحققه تحقيقا يقينيا . . وأعنى بتحقيقه تحقيقا يقينيا أن يخرج عن أشياء . . أن يخرج عن أن يكون تقليدا . . وأن يخرج أن يكون جهلا . . ويخرج أن يكون شكا . . ويخرج أن يكون ظنا . . ويخرج أن يكون وهما . .

فالنسب التى تتحكم فى حقائق الوجود لا تخرج عن هذه الأشياء أبدا ، إما أمر متوهم وإما أمر مظنون ، وإما أمر مشكوك فيه ، وإما أمر يبنى على الجهل ، وإما أمر يبنى على التقليد ، والأمر الذى يسود هؤلاء جميعا هو الأمر المبنى على اليقين . . واليقين هو مدلول كلمة العلم . . فكل قضية من قضايا الوجود لا يحكمها العلم اليقينى

لا تخرج عن واحدة من هذه الأشياء أبدا ، وإذا دخلت فى حيز واحد من هذه الأشياء فلا خير فيها ولا بركة منها . .

وإذا كنا نرى فى الحياة كثيرا من النظريات التى تختلف باختلاف العصور ولا تجنى الإنسانية ثمرتها إلا بعد تجارب من الخطأ والصواب ، وهى بالأخص النظريات الإنسانية فيما يتعلق بوجهات النظر للحياة والأشياء . .

وكثيرا ما يتغلب الهوى على هذه النظريات . . بعكس النتائج التى تتوصل إليها التجارب المعملية ، والتى لا اختلاف عليها فى أى مكان من الأرض ، ومهما اختلفت الأنظمة السياسية والاجتماعية التى تحكم هذه المجتمعات . . فالنتائج المعملية التى تجرى على المادة لا خلاف عليها . .

تقنينات السماء : لماذا ؟

ومن هنا يجب أن نتساءل : لماذا جاءت تقنينات السماء ؟

ويجيب الشيخ الشعراوى على هذا التساؤل :

تقنينات السماء حينما جاءت لتتدخل . تدخلت فى الأمور التى لا يهتدى فيها العقل إلى شىء ، لأن هواه يتحكم فيه . . أما الأشياء الأخرى التى لا يتحكم فيها الهوى فترك الإسلام فيها حركة الحياة حرة . . علم تجريبى . . ابحث ما شئت ، وجرب ما شئت ، ولاحظ فى ظواهر الكون ما شئت ، وأخرج من النظريات ما شئت ، فإذا انتهيت إلى حقيقة علمية فخذها على أساس أنها أساس تنتفع به

فى ترقية حياتك ، أما أمر لم توجد فيه المادة لتجرى عليها تجربة وأتبع أنا الهوى فاحذر منه . .

لماذا ؟

لأن أهـواء الناس متضاربة ، وما دامت أهواء الناس متضاربة فتصبح كل نسبة خاضعة لهوى، وما دامت كل نسبة خاضعة لهوى إذن فلا ارتقاء للبشرية فى أمر نظرى لا تجربة علمية فيه إلا أن يكون صادرا ممن لا هوى له وأن الناس جميعا بالنسبة إليه واحد ، ليس له فيهم ابن ولا صاحبـة ، إذن فكـل الناس بالنسبة سواء . . ولو أننا نظرنـا إلى موقف الإسـلام نجـد الإسـلام جاء بعد أديان قطع كل الرسل فيها مرحلة طويلة من مراحل الحياة . . إن كنا نريد أن نقف فسنقف بالنسبـة للديانتـين العـظيمتـين القريبتين من الإسلام وهما اليهودية والمسيحية . .

نقـول أن اليهـود حرفـوا كتابهم وبدلوا فيه وكتموا وزادوا ولووا ألسنتهم ، إذن فلم يكن هناك مصدر وثيق أن هذه التوراة هى التى نزلت عليهم ، وذلك بشهادتهم هم أنفسهم ، كما سبق أن بينا بآراء المستشرقين . . هذه التغييرات انحازت إلى ماذا ؟ انحازت إلى جانب المادة . . أم إلى جانب الروح ؟ انحازت إلى جانب الأمر المادى . . وهل يعقل أن يوجد تقنين من السماء يقنن فقط الأمور المادية وينسى الأمور الروحية ؟ . .

الأمور المادية لو لم يقنن الله فيها تقنينات من الممكن أن يضع فيها البشر تقنينـات . . إذن لابـد أن تكون المسائل التى تتعرض للقيم والمسـائل الروحية قد طمست من هذه الكتب فظلت مادية بحتة .

كما قلنـا أيضـا سابقـا أنهم أرادوا أن يخلعـوا أيضـا قانون المادة على الإله . . يعنى لم يعودوا يؤمنون إلا بشىء مادى « حتى نرى الله جهرة » .

والسماء لا تتدخل دائما إلا بعد مراحل . .

كل دين فيه طاقة توجد فى المتدين تجعل منه إما نفسا مطمئنة إلى منهج الله . . وإما نفسا لوامة ، أى تغفل مرة فترتكب معصية ثم تفيق مرة أخرى فتلوم صاحبها فتصبح الطاقة الموجبة والسالبة فى النفس . . وإما نفسا حصل فيها صدأ وانتهى كل شىء وأصبحت نفسا أمارة بالسوء لا تفكر أبدا فى أن تلوم صاحبها ، أو تعزف عن شر . . يبقى إذن الدين . . حينما يأتى إنما جاء ليطبعنا طبقا لنفس مطمئنة تخضع لمنهج الله ، أو على الأقل لنفس إذا غفلت مرة استيقظت مرة أخرى . .

أما النفس الأمارة فتجدها أمارة وليست آمرة لأن الأمر يمكن أن يأتى مرة وينتهى ، وإنما أمارة يعنى صارت وظيفتها دائما تأمر صاحبها بالسـوء ، فحـين توجـد فى المجتمـع نفس لوامـة . . يكـون هناك اطمئنان . . لأن النفس ستعمل معصية مرة وتستيقظ مرة أخرى . . ولكن إذا انتقلنـا من نفس مطمئنـة ولم نجدها أيضا وبقيت النفس الأمارة نقول ذلك فى الفرض إن كان فى المجتمع ما يقيم اعوجاجه التفت إلى منهج الخير ، وإذا كان المجتمع فسد هو الآخر ، فلابد إذن أن تتدخل السماء . . ولذلك لا تتدخل السماء بإرسال الرسل إلا حينما امتنعت أولا النفس المطمئنة . . ثم سيطرت النفس الأمارة . . ولم يوجد خارج النفس مجتمع رادع ، ليرد الإنسان إلى الطريق الصواب ،

إذن لابد هنا أن تتدخل السماء . فإذا كان الله قد شاء للعالم الخير وجاء بمحمد ﷺ وبالإسلام ، أعطى له الضمانات التى لا تتطلب رسولا بعد ذلك كيف ؟

قال : ماذا تريد فى منهج يقود البشرية مبلغا عن الله ، لأننا نفترض أننا نتكلم إلى أناس متدينين . .

* * *

(٢)

الفلسفة والإســـلام

الإسلام دين الفطرة . . لا تعقيد فيه ولا التواء ولا غموض . . إنه دين التوحيد المصفى . . حقائقه واضحة . . وتعاليمه واضحة . . والعمـل به سهـل وبسيط . . وقـد أغنى الله خلقه بمعرفة ما وراء الـوجـود بما يتنـاسب مع عقـولهم من خلال رسله وأنبيائه . . وكان الإسـلام باعتبـاره خاتم الأديان السـماوية شاملا لكل ما ينبغى أن يعـرفـه الإنسان عن نفسه. . . وعن الكون من حوله . . وعن خالق الوجود . . معرفة ليست فى حاجة إلى طلاسم ومعميات . . فرسم الإسـلام الـطريق لهذه المعـرفة ، ووضع من المبادىء والأخلاقيات والتشريعات ما يبيح للفرد حياة آمنة فى ظل مجتمع آمن . . كما يجد الإنسـان فى ظل تعـاليمـه ما يكفـل له سعـادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة . . أو على حد تعبير النبى ﷺ .

- « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضـــع لبنـه فى زاويـة . . فجعـل النـاس يطوفـون به

ويعجبون ويقولون : هلا وضعت اللبنة ؟ . . فأنا اللبنة . . وأنا خاتم النبيين » . .

وفى ظل منهج الإسلام . . وفى ظل تعاليمه . . انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية على يد رسول ﷺ . . الذى بعث برسائل إلى ملوك العالم وحكامه يدعوهم إلى الإيمان بالدين الخاتم الذى جاء إلى الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها . .

وانتقل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى أكرم جوار بعد أن أدى الرسالة على أكمل وجه . . وبدأ زحف الإسلام الساحق على يد أبى بكر الصديق ، ثم الفاروق عمر ، وعثمان رضى الله عنهم . . فتحطمت الإمبراطورية الفارسية ، وارتفعت رايات الإسلام على أرضها ، وترنحت الإمبراطورية الرومانية تحت ضربات المسلمين . . وتقلصت من أملاكها الشام ومصر ، وأصبحت تحت الحكم الإسلامى ، كما أصبحت العراق تحت راية الإسلام . . ثم أخذ الزحف الإسلامى ينتشر بعد ذلك بسرعة البرق حتى امتد فيما بين الصين شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ، ثم واصل زحفه الكاسح إلى جنوب أوربا .

وهكذا . . غزا الإسلام القلوب والعقول ، ثم أثر الفكر الإسلامى وتأثر بحضارات الأمم الأخرى . . كاليونان والروم والهند ومصر . . وكان لابد من أن ينشط الفكر الإسلامى فى مواجهة الفلسفات الأخرى . . فنقل المسلمون الحضارة اليونانية . . ولم يكونوا مجرد نقلة لهذه الفلسفة . . بل شرحوها وأضافوا إليها . . ثم أصبحت لهم اجتهاداتهم الخاصة فى مجال الفقه الإسلامى . . والفلسفة الإسلامية والتصوف .

ولكن الفلسفة تعرضت لهجوم عنيف من بعض الفقهاء ، وأيضا من الإمـام الغـزالى الذى شن عليها حملة ضخمة فى كتابه (تهافت الفلاسفة) . . وفى نفس الوقت تعرضت الفلسفة لمحنة شديدة عندما أحرقت كتب ابن رشد وتعرض للنفى والتشريد . .

وكانت نتيجة نشاط الفكر الإسلامى بعد حركة الترجمة الضخمة فى عصر المأمون بصفة خاصة والعصر العباسى بصفة عامة . . أن ظهرت الكثير من التيارات الفكرية بعضها حاول تحكيم العقل (المعتزلة) . . وبعضها الآخر آثر النقل (السنة) .

وتيار آخر وفق بين النقل والعقل (الأشاعرة) وفى بعض الأحيان كان يحتد النقاش حول بعض المشاكل الفكرية . . كمشكلة (خلق القـرآن) الـذى بسببها سجن إمام جليل هو الإمام أحمد بن حنبل وعــذب فى السجن عنـدمـا تمسـك بأن القـرآن كلام الله وليس بمخلوق . . كما يقول المعتزلة . .

وخفت صوت المعتزلة بعد أن تخلى عنهم الحكام . . كما خفت صوت الفلسفة كرد فعل لهجوم الإمام الغزالى عليها . .

ولكن الفلسفــة عادت اليوم تدرس فى المعـاهـد والجـامعـات وأصبحت لها أقسام متخصصة فى كليات الآداب ، كما تدرس فى الأزهر . .

ومـع دراسـة الفلسفـة بدأت تزدهر . . وخاصة بعد أن قامت بتدريسها فى الجامعة شخصيات بارزة كالشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتـابـه الرائع (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) . . كما أصبح

للفلسفة اليوم أساتذة كبار فى مختلف الجامعات المصرية والعربية ومع ذلك ظلت كلمة (الفلسفة) كلمة لها محاذير .

ترى ما رأى فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى هذه القضية الحيوية والهامة ؟ . .

فإذا كان أهم قضايا الفلسفة : الله . . العالم . . الإنسان ، وأن لها المناهج المناسبة لمثل هذه الدراسة ، سواء أكانت مناهج عقلية أم تجريبية أو ذوقية فإن الإسلام رؤيا شاملة لكل هذه القضايا . .

الشيخ الشعراوى يرى أنه يجب على العقل أن يفرق بين تعقل الشىء وتصور الشىء . .

ولتفهم الفرق بين تعقل الشىء وتصوره ، وهى المسألة التى أتعبت الفلاسفة فى الإيمان بالله فلم يكتفوا بتعقل وجود الله . . ولكن أرادوا أن يصوروا ذلك الإله . . فأتعبهم ذلك . . والفلاسفة قديما حينما اتجهوا إلى ما وراء المادة ليبحثوا عنه . . مالذى قال لهم أن وراء المادة شيئا ؟ فإذا علمت أن وراء المادة شيئا . . الفطرة قالت : إن وراء المادة شيئا . . والعقل صحيح . . قال : لابد أن وراء المادة شيئا . . هذا قدر كفيل بأن يكون وراء المادة شىء . فإذا ما علمت بأن وراء المادة شيئا ثم جاء الحق فسمح بإرسال رسول ليقول لك ألا أخبرك بوجود ما وراء المادة ؟ كان يجب أن ترهف أذنك لذلك الرسول فأنت ظاهرة من ظواهر الكون تقدر على أشياء وتعجز عن أخرى . . وتعرف أشياء وتجهل أخرى . . وتختار أشياء وتجيز على أشياء أخرى . . كان يجب أن تحل لغزك أنت أولا . .

لماذا تقدر على أشياء ولا تقدر على أشياء وتظهر على أشياء ؟ كان يجب أن ترهف أذنك لمن يحل ذلك اللغز فيك . . وبعد ذلك فى قدرتك على أشياء وعدم قدرتك على أخرى . . .

نجد أنك تتفاوت مع الناس فى القدرة . . وبعد ذلك القادر فوقه أقدر منه ، وهكذا إلى أن يأتى الجبار ليس فوقه جبار . . وبعد ذلك نرى أن هذا الجبار الذى يكره الناس على أشياء تجده مجبورا على أشياء . . كان يجب أن تفطن على أن هناك قوة غير مرئية فوق ذلك الجبار ما دام يقدر على أشياء ثم بعد ذلك يقهر على أشياء .

قوة أخرى فوق الانسان

إذن يجب أن تتنبه على أن هناك قوة أخرى فوقه لا ترى هى التى تقهره على هذه الأشياء . . إذا كنا فى هذا المكان وأغلقنا الأبواب والنوافذ ثم دق الجرس . . هنا تعقل . . تعقل أن طارقا بالباب وكلنا نتفق فى هذا التصور، فإذا اتفقنا ندخل فى منطقة التصور، وذلك يدخلنا فى متاهات . . واحد يقول هو رجل وواحد يقول امرأة وواحد يقول طفل صغير وهكذا . .

نختلف اختلافا فى أى منطقة . . فى منطقة التعقل أم فى منطقة التصور . . منطقة التصور هى منطقة الاختلاف . . فلو أننا اكتفينا بالتعقل وتركنا الطارق بالباب ليدلنا على من هو لالتقينا . .

فالتعقل قوة وراء الكون فيجب أن نرهف آذاننا حتى تعلن القوة عن نفسها وإلا فقولوا لى بالله قوة كالطبيعة . . قوة كالشمس . . قوة كالآلهة التى ادعى المدعون أنها هى التى خلقت الكون . . كيف

سمحت هذه القوة الخالقة للكون أن يدعيها مدلول الله فى نظر المؤمنين . . ويأخذها الله ويقول أنا الخالق . . وأنا الرازق . . وأنا المعين . . ثم لا تتكلم هذه القوة بكلمة ولا تبعث رسولا وتبقى مستكينة . . وتترك المدعى الذى هو الله يأخذ ذلك الكون منها ؟ . .

فإذا جاء شخص وقال : الله هو الذى خلق الخلق . . وآخر يقول الطبيعة هى التى خلقت . . ولم تجىء لنا برسول ولا برهان على أنها هى التى خلقت . . أرونى ما ذلك الإله العاجز الذى أخذ منه غير الخالق خلقه . . ومع ذلك ظل ساكنا خانعا لا يقول إن ذلك كذب وأنا الذى خلقت . . إذن فعدم وجود معارض لمدعى الرسل فى أن الله هو الذى خلق ، وعدم وجود منهج لهذه المدعيات يبطل أن تكون معبودة ، ويبطل أن تكون هى التى وراء ذلك الكون . . فالحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان أمده بفطرة . . هذه الفطرة تمكنه أن يدرك أن وراءه شيئا آخر . . فالطفل الصغير حينما يعتريه أمر من الأمور لمن يفزع ؟ يفزع إلى مظهر القوة فى حسه . . إلى أمه . . إلى أبيه . . فإذا كان الإنسان فى ضيق وكرب وكل أسباب النجاة مغلقة أمامه أترى أنه لا ييأس أبدا لماذا لا ييأس لأنه يتجه بفطرته إلى قوة أعلى منه لا يراها ولكنها تراه . . فهو بذلك ينصرف إلى الرصيد المدفون فى نفسه الذى يوحى بأن هناك قوة أخرى ستجيبه . .

محاولة استقراء الوجود

ولذلك حين يعرض ربنا هذه القضية يعرضها عرضا صريحا ، وبعد ذلك يحكى لنا عن المركب التى سارت فى البحر وهبت عليها الأمواج : « **دعوا الله مخلصين له الدين** » .

إنـه لا يمكن أن يخدع نفسه فى وقت مثل ذلك ولا يمكن أن يبيعها رخيصة أيضا . . عنده أمل فى أن أحدا سينجيه ، وبعد أن ينجيه يعود إلى كفره مرة أخرى . . إذن لو أن عقل الفلاسفة اكتفى بتعقـل قوة وراء ذلك الكون وبعد ذلك ترك القوة تعلن عن نفسها بواسطة رسول مؤيد بمعجزة من المعجزات لأراحت نفسها وأراحتنا ، وحين ننظر إلى الإنسان نجد أن الإنسان جنس من الأجناس . . وأنا دائما أرتب الأجناس بالاستقراء : جنس يسمى الجماد وجنس يمتاز عنه بمظاهر النمو فسميناه نباتا ، وجنس آخر يمتاز بمظاهر الحس والحركة سميناه حيوانا . . وجنس هو الإنسان امتاز بخاصية الفكر سميناه الإنسان . . تلك هى الأجناس باستقراء الوجود ، وبعد ذلك أن كل جنس من الـوجـود أعـلى من جنس آخر يأخذ خاصية تميزه عنـه . . النبـات لم يصبح نباتا إلا بخاصية النمو . . ولكن خاصية النمو أفقدته خاصية الجمادية لتظل فيه جمادية . .

وبعـد ذلك الحيوان ، هل خاصية الحس أفقدته خاصية النمو وخاصية الجمودية ، لا تظل فيه خاصية النمو والجمادية . . والإنسان فيه خاصية الحيوانية والنباتية والجمادية . . وأنا إذا قفزت قفزة فسأصبح مثل قطعة الحجر وقانون الجاذبية يحكمنى وأيضا أنمو بدون اختيار مثـل ظاهرة النبات . . وأحس ، وأجهزتى تتحرك وتعمل وأنا نائم بدون شعور منى . .

وبما أن الإنسان يتميز بمنطقة الفكر ، منطقة التكليف ، فنقول له أن الجـماد فى خدمة النبات والحيوان والإنسان ، والنبات فى خدمة الحيوان والإنسان ، والحيوان فى خدمة الإنسان . . وأنت أيها الإنسان فى

خدمة من؟ ما عملك ؟ فكل جنس من هذه الأجناس له مهمة يؤديها فما مهمتك أنت أيها الإنسان ؟

إذن يجب أن تبحث بالعقل، وإذا لم تجد لك مهمة وجنسا أعلى منك ترتبط به كما ارتبط الحيوان بك وكما ارتبط النبات بالحيوان فإن لم تبحث عن مهمة لنفسك وجنس أعلى منك ترتبط به فأنت أتفه من النبات وأتفه من الحيوان . .

إذن فيجب على العقل أن يبحث عن هذه المهمة فينظر فلا يجد جنسا أعلى منه ليؤدى له هذه المهمة . . إذن لابد أن يشغله ذلك حتى إذا ما أرسل الله له رسولا ليقول له : ألا أدلك على القوة التى يجب أن ترتبط بها ؟ والتى عقلك يبحث فيها فكان ذلك هو الرسول قد جاء بشيء إلى أنا طلبته بعقلى . . وبحثت عنه بعقلى . . ويأتى الرسول فيقول : إن هذه القوة هى الله ومطلوبها منك كذا ومصيرك إليه ، وجزاؤك يبقى كذا إذا عملت شرا أو طيبا . . فيكون الرسول قد أدى لى مهمة . . لأنه أنقذ فكرى وعقلى من البحث عن مهمة كان ضروريا أن أبحث عنها . .

وأيضا إذا نظرت إلى استقراء الأشياء وجدت أن الإنسان يصنع بنفسه صناعات . . وصناعاته التى يصنعها صناعات لا تؤدى ضرورة فى الحياة ، وإنما تؤدى ترفا فى الحياة . . فإذا لم يصنع الكوب من البلور لاستطعت أن أشرب فى الفخار أو الصفيح أو من الحنفية مباشرة . .

إذن كوب من البلور لا يمثل ضرورة فى الحياة . . وإنما يمثل ترفا فى الحياة ، فالله يقول إذا أردت أن تترف نفسك فأعمل عقلك وذهنك فى أسرار كونه ، فى عناصر الوجود . .

ما هو منهاج الاسلام ؟

وحول هذه المشاكل الصعبة والمعقدة التى واجهت الفكر الإسلامى والفكر العالمى إزاء المشاكل التى تستعصى على العقل ، يوضح لنا الشيخ الشعراوى ما يختص به منهاج الإسلام ، وهو يحدثنا عن خصائص المنهج الذى يقود البشرية إلى الصواب فيرى أن المفروض فى المنهج الذى يقود البشرية :

أولا : أن يوثق فى أنه هو الصادر عن الله بدون دخول البشر فيه ولا تحريف .

ثانيا : أن يكون مستوعبا لكل قضايا الحياة . .

ثالثا : ألا يتعارض مع حقائق الكون المادية التى سوف ينتهى إليها العقل .

رابعا : أن تكون شعائره التى تأخذ الإنسان من حركة حياته إلى حركة خاصة بربه بسيطة لا تستوعب كل وقته . .

فإذا نظرنا إلى هذه الأشياء والعناصر لا نجدها تمثل إلا فى دين الإسلام ، أما التوثيق فقد تكلمنا بشهادة الخصوم كما قال أرمسترونج ووليم فال فى (تاريخ حياة محمد) فى كلامه عن القرآن قال : القران هو كتاب العالم الوحيد الموثق . . ونستطيع أن نقول استنادا إلى أقوى الأدلة أن كل كلمة فى القرآن دقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد . .

هذه مسألة فرغ منها المؤلفون من غير المسلمين . .

يقول أحدهم : لم تكن هناك وسيلة لتحريف أى جزء من القرآن أو تبديله . . ولو بوازع الحماس له ، وهذه ميزة تفتقدها الكتب السماوية الأخرى . .

إذن فمن ناحية توثيق أن هذا الكتاب من عند الله أمر مجمع عليه ومتفق عليه واطمئناننا من ناحية هذا العنصر ضرورى ما دمنا نريد أن يقود منهج حياتنا كتاب ليس من صنع البشر . .

القرآن هو الكتاب الذى جاء دون تحريف ولا تبديل . . وبعد ذلك فهو مستوعب لكل أقضية الحياة . . فما دام ديننا شاملا . دينا خالدا مستوعبا للزمان ، مستوعبا للمكان ، إذن لابد أن تكون كل قضية فى الحياة لها حل فيه . .

مثلا إدوار كيور يقول : إن دماغا فلسفيا موحدا يستطيع أن يحكم كل قضية فى الإسلام أعلى من تطورنا الفكرى . .

هذا رجل إنجليزى صادفته فى فترة من الفترات نخوة للحق فقال هذه الكلمة . .

هذا من ناحية استيعاب المنهج لكل قضايا الحياة . . أما من ناحية أنه لا يصطدم بحقيقة كونية من حقائق الحياة التى تنتهى إليها نشاطات العقول . . فإن أليكس لوازين يقول : وقد خلف محمد ﷺ للعالم كتابا هو سجل البلاغة وآية الأخلاق . . والانسجام تام بين تعاليم الإسلام وبين القوانين الطبيعية ، فلا يوجد تعارض بين حقيقة علمية وحقيقة قرآنية ، وهذا الأمر أتعبنا جدا فى ديانتنا هذه لأنها ليست منسجمة مع حقائق الوجود لأن التحريف وصل إليها . .

هذا من ناحية اتساق آيات القرآن مع حقائق الكون وأقضية الوجود . .

أما من ناحية بساطة الشعائر ، فنقول أن حركة الحياة نوعان : حركة تعود على بالنفع المادى وحركة ألتقى فيها بربى ، هذه يجب أن تكون بسيطة فى شعائرها ، قصيرة فى زمنها . .

يقول القديس بودلى الأمريكى : إن القديس بطرس لو عاد إلى روما لامتلأ عجبا من الطقوس الدينية الضخمة ، وملابس الكهنوت المزركشة ، ولن يعيد البخور ولا الصور ولا الرقع ولا التماثيل إلى ذهنه أى شىء من تعاليم سيده المسيح . .

ولكن لو عاد محمد إلى أى مسجد من المساجد المنبثة فى العالم ما بين لندن إلى زنزبار لوجد نفس الشعائر البسيطة التى كانت تقام فى مسجده بالمدينة المقام من اللبن والآجر وجذوع الأشجار . .

إذن لدينا الآن دين كتابه موثق عن الله توثيقا يقينا ، شامل لأقضية الحياة . . مستوعب لها ، غير مصطدم ، بل منسجم مع حقائق الكون العلمية ، بسيط الشعائر لا تستغرق منك جهدا ولا زمنا طائلا . . دين كهذا مستوف لهذه العناصر لا شك يحمل معه عوامل خلوده . . من ناحية التوثيق أيضا الواقع يدل على ذلك ، لا نستشهد حتى بكلام الخصوم ، ولكن نستدل بالواقع ، لأن الواقع سيد الأدلة .

فالمسلمون يسيرون فى خطين غريبين جدا ، خط من ناحية المنهج كحاكم حركة فى الحياة ، نجد أن المسلمين يتحللون كل يوم شيئا

فشيئا عن المنهج الإسلامى وذلك مصداق قول الرسول ﷺ « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، أولها الحكم وآخرها الصلاة » . .

لكن فى الخط المقابل وهو توثيق النص القرآنى الذى يحتوى المنهج الإسلامى نجد أننا سائرون فى خط قوى ، كل يوم نوثق القرآن أكثر من الأول . . العناية بالقرآن كنص وكتابة عناية فائقة ، والانحراف عن المنهج انحراف فائق أيضا . .

لو أن العناية بالقرآن نشأت لأنى حريص على المنهج لكان الخطان مع بعضهما البعض لكن يوجد خطان منفصلان فيه عند الحركة على نهج القرآن وخطان مقبلان فيه على توثيق نص القرآن . .

تدخل بيت الذى لا يصلى تجد عنده القرآن فى أحسن حجم وأجمل زينة وتجده يضعه فى سيارته . . إذن فالمحافظة على توثيق نص القرآن آخذة حقها . . أما السير على نهج القرآن فضعيف . . فلو كانت مسألة توثيق نص القرآن تتبع الهوى إذن لضعفت كما ضعف تطبيق منهج القرآن ، ولكن نيس التوثيق قهرية صادرة عن الله ونحن مسخرون لها مصداقا لقوله تعالى :

- « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » . .

فنجد أن تثبيت نص القرآن آخذا صورا عديدة فهو مكتوب فى المصحف والمصاحف التى لا تحصى كثرة . . ومحفوظ فى صدور الحفظة من المؤمنين والمسلمين . . ومسجل على أسطوانات وعلى أشرطة . . ويذاع فى الإذاعات ليلاد ونهارا . .

الله حافظ القرآن

ألا يعطى هذا فكرة عن أن التوثيق قد بلغ ذروة الدقة والإتقان . . وهذا يدلنا أن الله سبحانه وتعالى صدق حينما قال :

ـ « وإنا له لحافظون » . .

أى أنه هو الحافظ لكتابه ولم يستحفظنا نحن عليه ، بينما استحفظ أهل الكتاب التوراة والإنجيل فأضاعوهما لأن الأمر بالحفظ أمر تكليفى يجوز أن يطاع ويجوز أن يعصى ، فلما تسرب الوهن إلى نفوس أهل الكتاب وغلب عليهم الهوى دخل التحريف والتبديل على التوراة والإنجيل . . أما القرآن فوجب حفظه لأنه الكتاب الخاتم الذى سيبقى إلى يوم القيامة ، ولأن السماء لن تتدخل بإرسال رسول آخر بعد محمد .

لذلك تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن حتى يكون حجة على الخلق وسبيلا إلى الحق يوم يبعثون . . يقول تعالى :

ـ « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » .

ونقف طويلا بين قوله تعالى بالنسبة للتوراة استحفظوا وبين قوله تعالى بالنسبة للقرآن « وإنا له لحافظون » . .

حاول خصوم القرآن محاولات شتى ليطفئوا نور الله ولكنهم ما استطاعوا تصديقا لقوله تعالى :

- « **فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون** » . .

إذن ثبتت قضية التوثيق بالواقع وبأقوال الخصوم .

بقى ألا يصطدم القرآن بحقائق الكون . . فالكون حقائقه لا ينكرها الإنسان وإنما كانت مستورة عنه . فاكتشافه لها جعله ينتفع بها فى دائرة أوسع . . مع أنها كانت تؤدى مهمتها من قبل أن يكتشفها الإنسان ، فالكهرباء كانت موجودة فى الكون ولكن بتعلم واكتشاف الإنسان لها استطاع أن ينقلها من ميدانها الأصيل إلى ميدان فرعى فى حياته . . إذن هو لم يبتكرها إنما هو اكتشف شيئا موجودا فى الكون . . إذن حقائق الكون ثابتة من يوم أن خلقها الحق سبحانه . .

كونك تستطيع بعقلك وعلمك أن تستخدم المقدمات المعلومة لتستنبط مجهولا ثم يصير المجهول معلوما تستخدمه لتستنبط فتجىء ارتقاءات الحياة المعروفة بالتطورات العلمية ، لا يعنى هذا أنك أوجدت ما لم يوجد . .

القــرآن والحقائق العلمية

والخطر كل الخطر من أمرين على أساسهما قامت مدرستان :

مدرسة تربط القرآن بالحقائق العلمية .

ومدرسة تبعد القرآن عن الحقائق العلمية .

فمن أين يجىء الخطر ؟

الخطر لا يأتى إلا من أن تعتبر حقيقة دينية أو قرآنية وهى ليست دينية ولا قرآنية ثم نجد حقيقة كونية تصطدم بها . .

إذن من أين جاء الخطأ ؟ الخطأ نتج من أنك حكمت بأن هذه هى الحقيقة الدينية والحقيقة القرآنية . . وهى ليست كذلك . .

أو أنك حكمت بأن هذه حقيقة كونية علمية وهى ليست حقيقة كونية ولا علمية، أما إن تأكدت وتيقنت ـ كما قلنا فى أصول العلم اليقينى ـ أن هذه حقيقة قرآنية وهذه حقيقة كونية فلا يوجد تصادم أبدا . لماذا ؟

ويجيب الشيخ الشعراوى :

ـ لأن الذى قال ذلك القرآن هو الذى خلق ذلك الكون . . ولو كان الخالق واحدا والقائل غيره . . لكان من الممكن أن يتضاربا . . إذن ظاهر التضارب من أين جاء ؟ ظاهر التضارب هذا جاء من أنك اعتبرت أن هذه حقيقة قرآنية بفهمك . . وهى ليست حقيقة قرآنية . . أو اعتبرت حقيقة كونية بفهمك وهى ليست حقيقة كونية . .

مثال ذلك كما نشهد نحن فى السعودية حيث يوجد من يقول : يا هذا إنك أخطأت فى تسمية هذه الحقيقة دينية أو حقيقة قرآنية وذلك لما جاءت الحقيقة العلمية الكونية تقول أن الأرض كرة بدأت تحدث فجوة بين ما تقوله الحقائق الكونية وبين ما يقوله القرآن على فهمك . . فالتصادم جاء من اعتبار حقيقة دينية وهى ليست حقيقة دينية ويستشهد على خطأ فهمه بقول الحق : « والأرض مددناها » ، لكن « مددناها » هنا يعنى بسطناها ، ولكن الخطاب هنا فى (مددناها) عام للناس فهل فى أرضى أنا أم أرضك أنت . . أى أرض ؟ إذن ما دامت على إطلاقها كان يجب أنك حين تصل إلى أى مكان فى

الأرض يجب أن تتحقق من كلمة (مددناها) ومادامت كلمة مددناها مازالت تتحقق فى أى بقعة من الأرض ، فهذا لا يتحقق إلا إذا كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مستطيلة أو أى شكل مسطح . . إنك إذا أتيت إلى حافتها مهما كان شكلها المسطح ومهما كان اتساع هذا المسطح المستوى فلابد أن أصل إلى حافته . . وهناك تجد هوة هائلة ولا تجد هناك الأرض ممدودة بل تجدها محدودة . : وهذا يتعارض مع قوله تعالى « مددناها » ولكن إذا كانت الأرض كرة فإنك حيث كنت ستجدها ممدودة حولك فى جميع الاتجاهات . . أمامك وخلفك وعن يمين وشمال . .

ومهما انتقلت من مكان إلى مكان فإنك واجدها ممدودة ولن تجد لها نهاية محددة أبدا . .

إذن فالفساد جاء من فهمك أن معنى (مددناها) سطحناها ، واعتبار ذلك حقيقة دينية قرآنية ، مع أن هذا الفهم خاطىء واستدلالا بقوله تعالى « مددناها » حجة عليه لا له . . والفساد كما قلنا يأتى حينما نقول : هذه حقيقة دينية ، وهى ليست كذلك ، وتصطدم بحقيقة كونية، فيكون أصحاب الحقيقة الكونية محقين فى قولهم : إن كان دينك يقول هذا الكلام فهو غير صحيح ، إذن فالفساد هنا ناجم من اعتبار أمر ما حقيقة دينية وهو ليس حقيقة دينية . . هذه مسألة . .

مسألة أخرى تجىء من اعتبار شىء ما حقيقة علمية ، وهى ليست حقيقة علمية، مثل (نظرية دارون) التى تقول بأن الإنسان أصله قرد . . فالقرآن ينص على أن كل شىء خلق خلقا مستقلا . . وكل جنس لم يرق عن جنس آخر لقوله تعالى :

- « **ومن كل شيء خلقنا زوجين** » . .

- « **فسبحان الذى خلق الأزواج كلها** » . .

ومن هنا نعرف أن الشيخ الشعراوى يرى أن السبب فى التصادم بين النـظريات العلمية (والتى لم تصبح حقيقة علمية) السبب هو افتعال أشياء . . وتسميتها حقائق علمية حتى تناقض القرآن ، مع أن القرآن تؤيده الحقائق العلمية . .

كما يرى الشيخ الشعراوى أنه كلما بالغ الناس فى الإلحاد أظهر الله سرا من أسرار كتابه الكريم يلفتنا به إلى أن هذا الكتاب ليس من عنـد البشر . . وأنه من عند الله الذى يعلم كيفية نهاية العالم كيف ستكون لقوله تعالى :

- « **سنـريهم آيـاتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** » . .

وهذا الكتاب العظيم الكريم الذى لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه لا يمكن أن يحيط أحد من الخلق بكل أسراره وكنوزه . .

* * *

(٣)

الطـــريق إلى الله

كل الباحثين الكبار فى الشرق والغرب يرون أن أسباب التدهور الأخـلاقى المعـاصر فى العـالم هى غياب فكـرة الـروح . . وسيادة الإلحـاد . . لقد نسى الغرب فى ظل (العملقة) المادية التى يعيش تحت ظلالها رحيق الروح . . وتصور أن ما توفره التكنولوجيا المعاصرة من رفـاهية كفيلة بأن تجعـل للحياة معنى . . ولكنهم مع ذلـك عاشوا حياتهم فى ظل التقدم الصناعى ، ووجدوا أن شيئا هاما ينقصهم . . فقد أصبحوا فى ظل الحضارة المعاصرة مجرد أرقام ، أو أن الإنسان مجرد ترس فى آلة هائلة تتجاوز طموحاته وأخلاقه وأمانيه . .

فلم يعد يعرف الأمن والأمان . . ولكن تسرب إلى نفسه القلق والتوتر والضياع والأمراض النفسية . . ووجد الإنسان المعاصر نفسه يعيش فى جنة وهمية . . فلا عرف الهدوء . . ولا ذاق لذة الراحة . . ولا عرف الأمان . . وانخدع بزيف الحضارة . . وعندما أراد أن يهرب من هذا الـواقع لجأ إلى المخدرات وأفلام الجنس . . واعتنق فلسفة

الهيبيز . . و . . زاد ضياعه . . لأنه يحلق بجناح واحد . . هو جناح المادة . . ونسى جناح الروح الذى ينير الأعماق . . ويدفع الإنسان إلى تذوق طعم الإيمان . . وما يوفره للإنسان من أمن وراحة وهدوء . .

وهـذا ما يوفره الإسلام للمسلم . . عندما تمسك به المسلمون كانت نهضتهم وسادوا العالم كله لعدة قرون ، أو على حد تعبير الشاعر الفيلسوف محمد إقبال :

- إن فلسفـة أوربـا المثالية لم تصبح فى يوم ما عاملا فى حياتها العلمية . . فأسفـرت عن ذاتيتـه المنحـرفة تحاول تحقيق نفسها عن طريق ديمقراطيات متنافرة . .

ويقـول أيضا : إن أوربا اليوم هى أكبر عقبة فى سبيل التقدم الأخلاقى فى حياة الإنسان . .

كما يرى أيضـا أن الإنسـان المعـاصر يعيش حياة غير مشبعة بالعاطفة الروحية، لأنه يعيش على صعيد الفكر فى نزاع صريح مع نفسه ، وعلى صعيد الاقتصاد والسياسة فى خصام حاد مع الآخرين . .

فالحل لمشكلات الإنسان موجـود فى الإسلام . . ولكن علينا أن نفهمـه فهـما مستنيرا بعيدا عن كل تطرف وتعصب يرفضه الإسلام نفسه . .

وحـول قضية الإيمان . . نجد الداعية الإسلامى الشيخ محمد متولى الشعراوى يناقشها بمنطق جديد وعميق ومقنع . . فهو يرى أن الله ضرورة عقلية وضرورة لغوية . .

ويحدثنا عن (الطريق إلى الله) ويتكلم عن المشاكل التى تواجه الإيمان بقوله :

- يواجه الإيمان بالله تحديات جمة وعوائق جسيمة ومؤامرات خفية ، وعلى المؤمنين أن يتسلحوا باليقين وأن يتزودوا بالعزم وألا يهتزوا أمام المشكلات التى تستهدف عقيدتهم ، والتى يمكن حصرها فى خمس مشاكل :

١ - مشكلة الإيمان بالله .
٢ - ومشكلة التوثيق بالله .
٣ - ومشكلة البلاغ عن الله .
٤ - ومشكلة الفهم عن الله .
٥ - ومشكلة الإسلام بمنهج الله . .

وكل مشكلة من هذه المشاكل لها بيئتها ولها محيطها ولها مروجوها ، ولها المدافعون عنها . . ولكن للأسف كل السلبيات هى القوية . . وكل الإيجابيات هى الضعيفة . . لأننا فى عصر فُتِنَ بعقله وهو سطحى . . معذور فى أنه يفتن بهذا العقل . . وفتنته بعقله ولدتها انتصاراته فى ميادين الكشف . . وفى ميادين الاختراع . . وفى ميادين راحات متعددة للناس فى أعمالهم الحياتية ، ولكن لو أن الحياة وحدها هى الغاية لهان الأمر فى هذه الفتنة ، ولكن الأمر لا يتعلق بهذه الحياة فقط ، فوراءنا حياة أخرى لا يشك العقل فى ضرورة وجودها ، فضلا عن أن يكون ذلك تلقيا من إيمان بالله عند المؤمنين بها ، فالذين يسرفون على أنفسهم ، ويهلكون المجتمعات بانحرافاتهم ، ويسومون المجتمعات سوء العذاب ، هؤلاء لولا أن الحياة هذه هى كل شىء ماذا

كان عن المدخر لمثل هؤلاء ليحاسبوا على ما قدموا من انحرافات ومظالم ومتاعب ؟ فلو أن هذه الحياة نهائية ولا حياة بعدها ، لفاز المنحرفون الذين أطلقوا لشهواتهم العنان فى أعراض الناس ودمائهم وأموالهم . . هؤلاء قد أخذوا حظهم ، وأخذوا متعتهم فى الحياة وهى هذه الحياة . .

إذن فما أشقى الذين التزموا بمبادىء الحق ومناهج الخير ومبادىء الجد . . كل هؤلاء ما أشقاهم لأنهم أمتعوا غيرهم وظلوا محرومين فى هذه الحياة . . ولا حياة بعدها . . فمنطق العقل إذن مجرداً عن الدين يوجب أن نؤمن بأن وراء هذه الحياة حياة يجازى فيها الإنسان بإحسانه ، ويعاقب فيها الإنسان على سيئاته ، ولو لم يكن ذلك كذلك لهان أمر القيم وهان أمر المبادىء الحقة وهانت أوامر الخير . .

ومن أجمل ما قاله الشيخ الشعراوى هو حديثه عن إن الإيمان ضرورة لغوية . . كيف ؟

يقول : قد تعجبون لأن الإيمان ضرورة لغوية ، لأن ذلك قد يكون تعبيرا جديدا فى عرف الاستدلال عن الإيمان بالله ، أما أنه ضرورة عقلية أو نفسية أو اجتماعية أو سياسية فقد عرض عليكم ، أما أن يكون ضرورة لغوية كذلك فهو العجب . .

. ولكن كيف توصل الشيخ الشعراوى ، أوكيف استدل ـ وهنا رأى جديد بالفعل ـ على أن الإيمان ضرورة لغوية ؟ . .

إنه يقول : اللغة هى ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . . فالعربى يتكلم العربية والإنجليزى الإنجليزية والفرنسى الفرنسية ، فلو أن ولدا عربيا نشأ فى بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية . .

فالشيخ يرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية مطلوبة للإنسان . . والإنسان لأنه فى مجتمع مدنى بطبعه يحتاج إلى لغة يتفاهم بها ، ولو كان وحده ما احتاج إلى لغة ، وما دامت اللغة ألفاظا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم فلابد أن يتفق المتكلم والمخاطب على معانى الألفاظ التى تدور بينهما و . . المعنى يوجد أولا ثم يوجد له اللفظ ، . . فالأمور العدمية المحضة لا توضع لها ألفاظ أبدا . . ويضرب الشيخ مثلا بكلمة تليفزيون لم يجد له لفظ إلا بعد اختراعه . . فقد اضطررنا أن نجد له اسما . . و . . هكذا . .

لفظ الله

ومن هنا تبرز علامة استفهام : كيف دخل لفظ « الله » لغة البشر ولغتنا نحن ؟

الشيخ الشعراوى يرد على هذا التساؤل بقوله :

- فى لغتنا نحن . . (الله) علم على واجب الوجود ، يعنى اسم الله ، اسم للقوى المطلقة بكل صفاتها ، ووضع اسم على مسمى أمر ألفناه جميعا ، لأننا نضع الأسماء للمسميات . . ويأتى الحق سبحانه وتعالى ويقول فى آية من كتابه :

- **« الرحمن هل تعلم له سميا »** . .

يعنى أعرفت أحدا سمى (اسم الله) على نفسه . . لا أحد . . لكن من الجائز أن محمدا استقرأ الأسماء فلم يجد أحدا من قبله سمى شيئا (الله) فما الذى كان يضمن لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجرأ

كافر ملحد ليقول : سأتحدى القرآن وأتحدى محمدا ، وسأضع اسم الله على شيء لى . . ما حصـل ذلك أبدا ، وظل اسم الله لله . . ومعنى أن الكفـار والمعاندين لا يصنعون ذلك دليل قاطع على أنهم يطمئنون إلى وجود تلك القوة، وإلا فما الذى يخيفهم؟ أو على الأقل يجعلهم غير واثقـين تمام الثقـة مما يعبـدون ، لأنهم لو كانـوا واثقين مما يعبـدون لرأوا فيما يعبـدون حماية لهم أن ينـزل الله بهم شيئا من القسوة ، فتحدى القرآن (هل تعلم له سميا) والمستدل عليه الآن لا لأنـه لم يوجـد ذلـك من قبـل ، ولكنه أيضا لم يوجد بعد مع وجود المكـابـرين والمعاندين فى وجود الله ، تحداه أن يطلقها فيخاف لأنه لا يريد أن يجعل التجربة فى نفسه ، ولو كان واثقا من موقفه العقدى لأطلق ولم يبال . .

الله بكل اللغات

ويقول الشيخ الشعراوى أيضا متابعا استدلالاته على وجود الله :

ـ إن كان الله أمرا عدميا لا وجود له ، والعدميات لا يوجد لها ألفاظ تدل عليها . . والعجيب أنك تجد نظير ذلك اللفظ فى وجود اللغات ، فلا مفر أن يكون الأصل الأصيل فى الإنسان الأول قد علم الله ، وقد عرف الله من أبيه آدم ، ثم تنوقل ذلك ، وبعد ذلك طرأ جحد الله على الناس . .

* لماذا ؟

ـ لأن الناس ألفوا (المحس) ولم يألفوا الغيب ، والله غيب ، ولذلك نجد فى الفلسفة اللغوية الأخرى أن كلمة الكفر نفسها دليل الإيمان . كيف ذلك ؟ لأن الكفر فى اللغة العربية معناها ستر ، فكأن الكفر طرأ على شىء موجود ليستره ، كلمة الكفر فى ذاتها تدل على الإيمان . . وكأن الإيمان هو الأصل . . الأصل المشهدى فى ادم ثم نقله إلى بنيه . . الأصل المشهدى فى الفطرة الإنسانية . . إذن فكلمة الله ، وكلمة كفر تدلان على الإيمان بالله معا . .

الإيمـــان ضرورة نفسية

ونتوقف مع فكر الشيخ الشعراوى وهو يحدثنا عما يحدثه الإيمان فى النفس البشرية . . ونحن نعرف الآن أنه فى أوربا وأمريكا لجأوا إلى ما يسمى بعلم النفس الـدينى ، وهـو العلم الـذى يعالج أمراض النفس عن طريق الاعتقاد . . فهو من أحدث الصيحات فى العلاج النفسى ، لأن النفس تسقط صريعة للأمراض النفسية ، عندما يغلق الطريق أمام الأمل وتسد النوافذ نحو الحلول التى تعترض الإنسان فى مسيرة حياته ، ولا يوجد المثال فى القوة التى تجعل للحياة معنى ، عندئذ تسقط النفس فى مهاوى الأمراض . . وأمراض النفس أصعب مئات المرات من أمراض الجسد . .

ونرى الشيخ الشعراوى بما لديه من عمق الوعى ، يشرح لنا كيف يكـون الإيمان ضرورة نفسية ، ويجيب على التسـاؤل : ماذا يفعـل الإيمان فى النفس ؟

يقول : يغير طبيعة وكيماوية النفس البشرية . .

ويضرب أمثلة عما يحدثه الإيمان فى النفس بقوله :

مثلا التاريخ يحدثنا أن الخنساء مات أخوها صخر . . فملأت الدنيا عليه بكاء وعويلا حتى فقدت بصرها وهو أخوها . . وبعد ذلك أسلمت وجاء لها خبر أبنائها الأربعة فى معركة القادسية واستشهدوا فى وقت واحد . . كان هذا أخاها وهؤلاء أولادها . وكان أخوها واحدا ، وهؤلاء أربعة فماذا قالت ؟

قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم واستشهادهم ، واسأله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته . .

ما هذا العزاء الذى دخل عليها ؟ إنه بالإيمان أعظم المصائب يهون أمرها . .

ويضرب مثلا آخر بأبى بكر الصديق وابنه عندما التقيا فى معركة بدر ، وكان الابن مازال على الكفر . . يقول ابن أبى بكر لأبيه :

يا أبى لقد رأيتك فى المعركة فلويت وجهى عنك (يريد أن يمتن على أبيه) . .

فيقول أبو بكر : أما والله لو رأيتك لقتلتك . .

ويحلل الشيخ الشعراوى هذا المشهد بقوله :

- ابن أبى بكر منطقى مع عواطفه . . وأبو بكر ذاته منطقى مع عواطفه . . لأنه عندما يقابل ابن أبى بكر الكافر أباه فى المعركة يقارن بين أبيه وبين ماذا ؟

لو عنده عقيدة حقا ومتمسك بها على أنها حق كان يهون أبوه أمام العقيدة، إنما وجد أباه ولم يجد العقيدة . . فمن يفضل؟ يفضل أباه طبعا . .

لكن أبـا بكر قال : لو رأيتك لقتلتك ، لأن أمام أبى بكر عقيدة أعز عليه من ابنـه . . فيكـون منـطقيا مع نفسـه ، والثانى منطقى مع نفسه . . فانظروا كيف فعل الإيمان فى النفس ؟ النفس البشرية . .

إذن فالعزاء للإنسان فى كل أحداث الحياة أن يكون له إيمان . ولذلك يقول الناس الصالحون :

- لا كـرب وأنت رب . .

مادام فيه رب لا يوجد كرب . . فالفرق بين المؤمن والكافر . . أن المؤمن تهون عليه المصائب . . لأنه يقارن البلاء بأجره . .

ويقول الشيخ الشعراوى :

- وليس الـوضع الإيمانى أن تؤمن . . لا . . بل تشهده كأنه مشهد . . كأنه واقع ، ولذلك حين سأل الرسول ﷺ الصحابى : كيف أصبحت ؟

قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا . .

قال له : هذه كلمة واسعة جدا هل تعرف معناها ؟

لكل حق حقيقة فما هى حقيقة إيمانك ؟

قال : عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها . . وكـأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة ينعمون . . وأهل النار فى النار يعذبون . . يعنى لم يعد خبرا بل صار مشهدا . .

ويتحدث الشيخ عن الجزاء والعقاب . وكيف أن ربط العمل بالجزاء ، يؤدى إلى سلوك متوازن . .

ويقول إن القرآن الكريم بشهادة المستشرقين اعترفوا بأنه ليس فى العالم كله كتاب واحد كالقرآن لم يحرف ولم يبدل . . وفى جامعيه لم يفعلوا أى شيء فى جمعه ودقته ، والذى نستطيع أن نؤكده أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقـا فحسب ، بل كان كما تدل عليه الوقائع كاملا ، وأن كل آية فى القرآن مضبوطة كما تلاها محمد عليه الصلاة والسلام . . هذه شهادة الكل . . شهادة المستشرقين .

فإذن نصنا موثق من السماء ، إلهنا واحد فما المشكلة بيننا ؟

وما الجفوة بيننا وبين الدين ؟ إلا أن تكون جفوة مفتعلة ، جفوة مصنوعة من خصوم الإسلام أولا ، ولكن عز عليهم أن يجابهوا الإسلام كخصوم له ، لأنك إذا ما لقيت خصما فإنك تكون متحفزا لأنه عدو دينك فماذا صنعوا ؟

ـ أحبوا أن يدخلوا إلى الإسلام بالمسلمين أنفسهم ، وهذا هو الخطر كل الخطر حين واجهونا عسكريا فهزمناهم ، حين واجهونا مبشرين . . أخذنا كل خبراتهم فى ملاجئهم ومستشفياتهم وما ظفروا منا بواحد يأخذونه فى دينهم . .

فإذن ماذا صنعوا بعد ذلك ؟

يدخلون بالمسلمين أنفسهم . . يدخلون علينا بفتن الاستشراق . . وفتن الاستغراب أخطر من فتن الاستشراق . . وفتن

الاستغراب هم الجماعة التى مكنت لهم الظروف أن يذهبوا ويأخذوا من علم هؤلاء فجاءوا إلينا لكى يفهمونا أنهم أصبحوا أمة ثانية وشيئا آخر ورددوا ما قاله لهم هؤلاء . . وحاولوا محاولات شتى ليأخذوا منا شيئا ، ولكن الخميرة موجودة ، والمناعة موجودة . .

فماذا هم صانعون ؟

لابـد أن يدخلوا علينـا بترف الحياة . . لابـد أن يدخلوا علينا بزخارفها حتى إذا ما ألفنا مظاهرها . . نحن أنفسنا الذين نهار . . وهذا هو الواقع .

معجـــزة القـــرآن

إن فكـر فضيلة الشيخ محمـد متولى الشعراوى فى غاية العمق والثراء . . إنه يفتح الطريق أمام سامعه أو قارئه إلى فهم دينه فهما واعيا مستنيرا . . فهما يقربه إلى جوهر الدين وأصالته . . ويأخذ بيده لفهم الإسـلام فهـما صحيحا . . فليس فى الدين طلاسم . . وليس فيه غموض . . إنه دين الفطرة . .

فهو يحدثنا عن معجزة القرآن الكريم . . وهو معجزة الإسلام الخـالـدة إلى يوم الـدين . . فبعـد أن يحدثنا عن معجزات الأنبياء السابقين . . وهى معجزات تشهد على صدق الأنبياء فى زمانهم لأن الناس يرونها رأى العين ، إلا أن معجزة القرآن تظل معجزة الإسلام الخالدة إلى الأبد . .

فما هو وجـه الاختـلاف بين المعجـزات السـابقة عن الإسلام ومعجزة القرآن الكريم ؟

يجيب الشيخ الشعراوى على ذلك بقوله :

ـ معجزات الرسل خرقت قوانين الكون . . وتحدت ، وأثبتت أن الذى جاءت على يديه رسول صادق من الله . . ولكنها معجزات كونية من رآهـا فقـد آمن بها ومن لم يرها صارت عنده خبرا إن شاء صدقه ، وإن شاء لم يصدقه ، ولو لم ترد فى القرآن لكان من الممكن أن يقال أنها لم تحدث . .

إذن فالمعجزة الكونية المحسة ، أى التى يحس بها الإنسان ويراها تقع مرة واحدة ، من رآها فقد آمن بها ومن لم يرها تصبح خبرا بعد ذلك . . على أن هذه المعجزات لا تتكرر أبدا . . وهناك رأى يقول أن معجزات الرسل مع تقدم العلم يمكن أن يصل إليها البشر . . وهذا الرأى غير صحيح على الإطلاق . . فالمعجزة تبقى معجزة إلى يوم القيامة . .

ولكن كيف تختلف معجزة القرآن عن المعجزات الأخرى ؟

يجيب الشيخ الشعراوى على ذلك بقوله :

ـ معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين فى كثير من زوايا الإعجاز . . وفى القرآن إعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره ، حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه إعجاز أخرى أو جديدة تزيد فى معنى الإعجاز أو تعطى أبعادا جديدة لما يقال . . بل إن إعجاز القرآن موجود أحيانا فى حرف . . حرف من القرآن يحمل إعجازا رهيبا . .

ويرى الشيخ الشعـراوى أن القـرآن يتجـدد لا يجمد أبدا . . سخى يعـطى دائما ، قادر على العطاء لكل جيل يختلف عن الجيل

الـذى قبله، وبنفس الآية . . أى أن هناك آيات من القرآن تعطينا الآن عمقا جديدا فى معناها ـ ذلك العمق لم يكن أحد يصل إليه بالفهم الدقيق فى أول وقت نزول القرآن . .

الثـــابت والمتغـــير

ويوضح الشيخ الشعراوى هذه النقطة بأنه يجب التفريق بين شيئين اثنين فى القرآن الكريم . .

الأحكـام الخـاصـة بمنهج العبادة . . أو ما يحدد للبشر ليقوموا بعبادته بالطريقة التى حددها الله سبحانه وتعالى ليعبد فى الأرض . . كلمـة افعـل ولا تفعـل ، هذا حلال وهـذا حرام . . هذه الأحكام التكليفية لا تغيير فيها ولا تبديل ، وإنما كما فسرها الرسول ﷺ أو كما فسرت فى عهـد نزول القرآن . . الصلاة خمس مرات لا اجتهاد فى هذا . . شهادة أن لا إله إلا الله . . الزكاة . . ما حرم على الإنسان وما أحل له . . الزواج والطلاق . . كل ما شرعه الله من أحكام بينه الرسول ﷺ وفسره ولا اجتهاد فيه . . لا يستطيع أحد أن يأتى ويقول لنـا أن الصلوات أربـع مرات فى اليوم، ويفسر هذا بأى وجـه من التفســير . . هذا غير معقــول وليس مجال المنــاقشــة . . افعــل أو لا تفعــل . . الأحكـام التى إذا فعلتهـا نجـوت وإذا لم تفعلهـا عوقبت . . هذه لا تبديل فيها ولا اجتهاد . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد كيف نعبده وهو الذى يختار لنا الطريق . .

ويتحدث الشيخ الشعراوى عن الأشياء التى تخضع للاجتهاد وهى المتصلة بقـوانـين الكون والخلق . . تلك الأشياء التى لم يكن

للعقل البشرى الاستعداد العلمى ليفهمها تماما وقت نزولها . . مثل كروية الأرض ، إحدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن ، ومثل الغلاف الجوى المحيط بالأرض، إحدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن . . علم الأجنة تناوله القرآن . . دوران الأرض حول نفسها . . الزمن ونسبية الزمن، وعدد من حقائق الكون الأساسية . . نجد أن الآيات التى تتناول هذه الأشياء مر الرسول ﷺ عليها مرورا وترك للعقل فى كل جيل أن يأخذ قدر حجمه ، والمعجزة هنا فى القرآن أنه يعطى لكل عقل قدر حجمه . . ويعطى لكل عقل ما يعجبه ويرضيه . .

فنرى غير المتعلم يطرب للقرآن ويجد فيه ما يرضيه . .

ونصف المتعلم يجد فى القرآن ما يرضيه . .

والمتبحر فى العلم يجد فى القرآن إعجازا يرضيه . .

هذه واحدة من إعجاز القرآن الكريم ، إنه يقدم لكل نفس باستخدام الآيات والألفاظ التى تؤدى إلى المعنى . فإذا ما كشف الله للبشر عن سر من أسرار كونه ، ورجعنا إلى الآية نجدها تؤدى نفس المعنى . .

ويرى الإمام الشعراوى أن معجزة القرآن الكريم تختلف أيضا فى أن الله هو الذى يحفظ كتابه ، أما معجزات الرسل السابقة ، فقد كلف الله البشر بحفظها فحرفوها ونسوا ما ذكروا به وأضافوا إليها ، ولكن الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن من أن يحدث فيه أى تغيير أو تبديل، كما أن القرآن كلام الله الذى بدأه مع آدم والذى هو أساس

العلم البشرى كله ، ولكن القران جاء يتحدى العرب فى اللغة وفى البلاغة . .

معنى الحـروف فى القـرآن

وإذا كان كتاب الله ـ جل علاه ـ قد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بحفظه من التحريف . . وأنه ليس بقدرة البشر العبث به . . وأنه صرف البشر عن تقليده كما يقول البعض . . وأن عطاء القرآن لكل العصـور . . فإن هنـاك مشكلة اختلف حولهـا المفسرون . . وهى الحروف التى تبدأ بها بعض السور . . مثل الم . . كهيعص . . ق ، إلى آخر هذه الحروف . . هذه الأحرف أو غيرها مما افتتحت بها بعض السور قيل أنها من الأسرار المحجوبة ، وقيل هى أسماء الله تعالى ، وقيل هى أسماء الله عز وجل ، وقيل هى إشارة لابتداء كلام وانتهاء كلام كما يقول محمد فريد وجدى . .

ترى ما رأى الإمام الشعراوى فى ذلك ؟

إنه يقول :

ـ ولكنهم فى تحديهم ووقوفهم فى موقف المعارضة أثبتوا أنهم فى داخـل أنفسهم يعتقـدون أن القرآن هو الحق لأنهم لم يستطيعوا أن يتحدوا إعجازه . .

الإعجاز أولا فى النبى المختار للدعوة . .

والإعجـاز ثانيا فى استخـدام نفس الحـروف والألفـاظ التى يستخدمها البشر .

والإعجاز الأول أن النبى ﷺ لم يقرأ ولم يكتب طوال حياته ولم يتعلم القـراءة والكتـابـة . . ولم يدرس الأدب ولا الشعـر ولا النثـر ولا علم الكلام إلى غير ذلك . . ومع ذلك فقد جاء بكلام غاية فى الإعجاز . . كلام لا يستطيع أولئك الذين درسوا البلاغة وبرعوا فيها أن يأتوا به . . أو يأتوا بسورة من مثله . . بل الإعجاز يتجلى أكثر فى أن الله سبحانه وتعالى أثبت فى القرآن أن هذا الكلام ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام . . بل هو كلام لا يمكن أن يأتى به أمى . .

فالإنسان الأمى قد ينطق الكلمات . . وقد ينظم الشعر والنثر والسجع ، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يأتى بالحروف التى تتكون منها الكلمات . .

ويضرب الشيخ الشعراوى مثلا يقرب الصورة إلى الأذهان فيقول :

ـ إذا ذهبت إلى إنسان لم يعرف فى حياته القراءة والكتابة وسألته ما هذا ؟

يقول لك : هذا كوب مثلا . .

فإذا قلت له ما هى الحروف التى تتكون منها كلمة كوب لم يعرفها لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة . .

وإذا بالله سبحانه وتعالى يأتى بالحروف التى لا يعرف مسمياتها رجـل أمى ، ويجعـل النبى ينـطق بها ويجعلهـا فى القـرآن فيقول : « ألف . . لام . . ميم . . كاف . . ها ـ يا ـ عين ـ صاد » إمعانا فى الإعجاز والتحدى . .

محمد نبى أمى لا يمكن أن يعرف أسماء هذه الحروف أبدا ، ولكنه جاء بأسماء هذه الحروف إثباتا بأن هذا ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام . لأنه لو كان كلام محمد وهو رجل لم يقرأ ولم يكتب فى حياته . لكان من المستحيل أن يعرف أسماء الحروف التى لا يعرفها ولا يستطيع أن ينطق بها إلا من تعلم القراءة والكتابة .

قدرة الله وقدرة البشر

ويدلل الإمام الشعراوى على الإعجاز القرآنى بأن القرآن يستخدم نفس الحروف والألفاظ التى يستخدمها البشر فى أسلوب ومعان يعجز عنها البشر ، وهذا إعجاز وتحدٍّ .

فيقول : أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أولا أن القرآن لم يتميز ببلاغة إلا لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى . . مادته ليست من جنس أعلى من مادة البشر ، بل هى من جنس كلام البشر ، الحروف هى الحروف ، والكلمات التى ينطقون بها هى نفس الكلمات المستخدمة ، وجاء بكلمات الحروف كأسماء يستطيع أن ينطق بها الجاهل والمتعلم ، ومسميات يستطيع أن ينطق بها المتعلم وحده . . ثم بعد ذلك قدم المعجزة وتحدى ، الحروف نفس الحروف . . والكلمات نفس الكلمات ، ولكن الذى أفحمهم هو الله سبحانه وتعالى فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، وهذا دليل على أن الصانع هو المختلف . . ومن هنا كان التحدى عظيما لأن الفارق هو بين قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة البشر . .

ويتحدث الإمام الشعراوى عن البلاغة عند العرب وتعريفهم لها بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . . بمعنى أن تكون

التراكيب منسجمة ومخاطبة البشر مطابقة لمقتضى عقولهم فكانت بلاغة البشر على قدر علمهم بمقتضى حال المخاطب . .

يقول الشيخ الشعراوى : ومعنى ذلك أنه لابد أن يكون هناك علم . . وعلمنا كبشر بأحوال المخاطبين محدود . . ولكن علم الله سبحانه وتعالى بلا حدود ، ومن هنا فإن بلاغة القرآن الكريم فى أنه معجز فى مخاطبته للبشر جميعا ، معجز فى بلاغته ومطابقته مقتضى مخاطبته للبشر جميعا . . يخاطب ملكات فى الناس لا تدرى ولا تعرف سرها ، مكون من نفس الحروف والكلمات التى يستخدمها العامى والمتعلم ، تحدى بها الله البشر أن يأتوا بسورة من مثله . . ثم تحدى الإنس والجان وهم الذين لهم اختيار. ووضع الله فيه أسماء الحروف كإعجاز . . لأن الموحى إليه وهو النبى ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب . . على أن الإعجاز فى القرآن لا ينتهى عند هذا الحد . . وإنما يمتد إلى دقة اللفظ والتعبير التى يعجز عنها البشر . .

هذه إطلالة على فكر الشيخ محمد متولى الشعراوى . . إنها مجرد إشارة أصبع من بعيد . . أو أنها مجرد محاولة للاقتراب من فكر عالم جليل ملأ الدنيا وشغل الناس على حد تعبير المتنبى . .

وأنا فى هذه الرحلة التى كنت أحاول فيها أن أقترب أكثر من فكر هذا العالم الجليل أشبه (نيوتن) عندما اكتشف قانون الجاذبية . . وسئل عن مشاعره فقال معبرا عن اكتشافه بأنه أشبه بصياد يتلهى بحصاة ملساء على الشاطىء بينما أعماق المحيط مليئة بالأسرار . .

لقد أشرت من بعيد إلى المحيط الزاخر من العلم والمعرفة عند إمامنا الجليل . . بينما ما يزخر به من علم فياض بينى وبينه أمد بعيد . .

وحتى تكتمل ملامح هذه الإطلالة على فكر الشيخ الشعراوى كان لابد من إجراء حوار حول الفكر الإسلامى . . لوضع النقط فوق الحروف . . وحتى تكتمل ملامح الصورة .

* * *

لقــاءات مع الإمـام الشعـراوى

- ١ -

آراء فى قضايا هامة

*** ما هى حقيقة المهدى المنتظر ؟ . . وما هو سر المسيخ الدجال الـذى يظهـر فى آخـر الزمان . . ولماذا يتخلف المسلمون عن ركب الحضـارة الحـديثة ؟ وكيف يفسر القرآن بعضه البعض . . ولماذا لم يفسره الرسول ؟ . .**

هذه بعض التساؤلات التى طرحتها فى حوارى الطويل والمستنير الذى اتسعت دائرته مع العالم الشيخ محمد متولى الشعراوى . . ورغم امتـداد الحوار لساعات وإرهاق الشيخ الشعراوى ـ وخاصة أنه يمر بدور النقاهة بعد رحلة مع المرض ـ إلا أنه يستمر فى الحوار يستغرق فيه بروح الداعية الإسلامى وبفكر وعقل المسلم المستنير . .

وفى هذه الحلقة . . يتحدث عن تفسير القرآن . . وهل هناك تفسـيرات حديثـة وأخرى قديمة ؟ . . وحقيقة المحكم والمتشابه فى آيات القـرآن الكـريم ؟ ويتكلم الشيخ الجليل عن قضية الصـوفية وما أثير حولها من انتقادات وما هو مفهومها الأصيل وما نظرة التفسير المستنير لاحتمال وجود كائنات عاقلة فى العوالم الأخرى ؟ . .

* سنحت لى فرصة إجراء حوار دينى مستنير طويل مع الشيخ متولى الشعراوى عندما طلب منى زيارته عقب صلاة الجمعة مباشرة . . وكان يجلس وحده فى الفندق . . وكانت حالته الصحية والنفسية على ما يرام . . و . . كانت علامة الاستفهام التى تقفز فى ذهنى : كم من الوقت ممكن أن آخذه من الشيخ ؟

ووجدت الوقت الكافى للتحاور معه (على روية) عندما دعانى إلى الإفطار معه . . وهكذا سنحت الفرصة إلى هذا اللقاء الذى استغرق عدة ساعات أجاب فيها الشيخ على ما طرحته عليه من قضايا الفكر الإسلامى الهامَّة . . فقد امتد اللقاء إلى قبيل الغروب . .

*** قلت للشيخ الشعراوى : هناك من يقول بالتفسير العلمى للقرآن الكريم . . وهناك من ينادى بأهمية التفسير اللغوى له ، فهل هناك تناقض بين المفهومين ؟**

وأجاب الشيخ الشعراوى :

ـ ليسا متقابلين بحيث إذا وجد منهما واحد يمتنع الآخر ، ولكنهما متكاملان . . أى لابد من هذا وهذا . . التفسير العلمى مناطه بيان الإعجاز القرآنى وأداء المعانى بالأسلوب الذى عجز عنه البشر . . أسلوب البشر دائما يعطى المعنى فى نفس المتكلم ساعة تكلمه ولكنه لا يعطى معطيات تجد بعد ذلك . . لأنه يعلم ولا ينفعل لأشياء تجد بعد ذلك . لكن الله حين يتكلم . . كل الكون عنده بما فيه من أحداث وما فيه . . فإذا تكلم كلاما فلابد أن يكون الكلام صفة المتكلم . . ومادام كلام الله لا يتناهى . . إذن معطياته لا تتناهى . . بعكس معطيات البشر فإنها تتناهى . .

ويصمت الشيخ قليلا ويتابع شرح وجهة نظره فيقول :

القرآن فيه عقائد وأحكام وقصص . .

العقائد هى القمة التى ينشأ عنها احترام الأحكام . . فعقيدتى : أن الله هو الذى خلق ورزق . . وهو . . وهو . . له صفات الكمال المطلق . . وأننى سوف أرجع إليه . .

وهذه هى العقيدة . .

واحترامى للعقيدة يجعلنى أحترم ما تأمرنى به فتنشأ العناية بالأحكام احتراما للعقيدة . .

ثم قصص تبرز هذه القضايا العقائدية والأحكامية فى ثوب واقعى لتثبيت الأمور الواقعية فى الكون . . وأن وراء هذا الكون ما وراءه . . هذا الكون فيه آيات . . ليل ونهار . . ونظام هندسى . . هذا الكون بما فيه من آيات يعطينى التفكير فيمن صنعه . . ثم تأتى الآيات المعجزات التى تبين صدق الرسول فى البلاغ عن الله . . ثم تأتى آيات فتعطينى الأحكام . . فهناك آيات كونية . . ثم آيات لبيان المعجزة . . وآيات الأحكام لا تتغير، لأنه سيترتب عليها ثواب وعقاب ، وهذا يجعلها متضحة . . هذه هى الأحكام . .

ولكن الآيات الكونية الموجودة فى الكون ما كان للقرآن أن يعالجها عصر نزوله . . لأنه نزل فى أمة أمية . . والعالم بالنسبة لمعطياته كان أميا . . كل العالم كان أميا . . فلو أنه واجه بصراحته الآيات الكونية كان الذهن المعاصر لا يقبلها ، ومن هنا يعطى الله الآية الكونية السر والسحر فى التعبير . . حتى يأخذها الذى يعاصرها على أى معنى . .

لكن إذا جد فى الآيات الكونية جديد لا يضيق اللفظ والأسلوب به . . وإلا لو أن القرآن أفرغ عطاءه كله فى القرن الأول الهجرى فكيف كان يواجه القرون التالية . . فمعنى مواجهته لكل القرون يعنى أنه لابد أن يكون معجزة لكل العصور . . فنحن الآن مثلا ونحن فى القرن العشرين . . هناك من لا يصدق بكروية الأرض . . فماذا يعقلون قديما . . كانوا سيتفرقون عن الكتاب وعن أصل الدعوة . . فالدعوة أتت بأحكام مثلا عندما كانوا يسمعون : الله رب المشرق والمغرب . . ويسمعون المشرقين والمغربين . . و . . المشارق والمغارب . . فالمعاصر لرسول الله يعرف أن هناك مشرقا ومغربا . . ولكنه يلاحظ أن فى الصيف لها اتجاه . . وفى الشتاء اتجاه . . يقول : هنا مشرق صيف . . ومشرق شتاء . . وهكذا . . وعندما يرى أن الشمس تخرج من أمكنة مختلفة . . أخذوا يفهمون معنى المشارق والمغارب . . ونحن الآن نرى المبتكرات قربت هذه المسائل من العقول ولكنها فى نفس الوقت لم تلغ الانطباع الأول . فقد ثبت الآن أنها تشرق عندنا فى نفس الوقت الذى تغرب فيه عند الآخرين . . إذن أمام كل مشرق مغرب وأمام كل مغرب مشرق . . ولكن الشمس تشرق فى كل لحظة . . إذن هناك مشارق وهناك مغارب . . وهذا هو التفسير العلمى . .

وهو أن يوجد فى القرآن ما يطابق مبتكرات الحياة . .

التهيب للتفسير العلمى

ويرى الشيخ الشعراوى أن من أقدم على تفسير القرآن علميا ومن لم يقدم على التفسير كلاهما محب للقرآن غير أن المؤمن بالتفسير العلمى غيور فتهافت . . والآخر غيور فتهيب . .

ويقول الشيخ الشعراوى :

إن النـظرية تخطىء وتصيب بعكس الحقيقـة العلمية التى لا يمكن أن تتناقض مع حقائق القرآن . . وعلينا فى التفسير أن نتجه إلى الحقائق العلمية لا إلى النظريات ، ولذلك يجب أن نجنب القرآن الهزة الانتقادية ، ونتجه إلى الحقائق لا إلى النظريات . .

القــرآن يفســر القــرآن

*** يقولون أن القرآن يفسر بعضه بعضا . . ما معنى هذا ؟**

أجاب : مثلا . . عندما يتكلم عن يوم الدين يقول :

« **يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله** » . . إذن القرآن يأتى بالحكم ، قد يأتى به مجملا ، وقد يأتى به مفصلا بعد ذلك . .

مثلا يقول : « والإثم والبغى بغير الحق » وهنا اختلفوا فى كلمة (الإثم) . . ومن هنــا نبحث فى القــرآن نفســه : ماذا قال عن الإثم . . قال فى الخمـر متحدثا عنها وعن الميسر « وإثمهما أكبر من نفعهما » . . إذن الخمر إثم .

مثلا يتساءلون : ما هى الفواحش ؟

يقول البعض أنها الكبائر . .

وما هى الكبائر . . والصغائر ؟ ويختلفون . نقول له : إن القرآن يقول : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . . » من هذا نفهم أن الفاحشة يقصد بها الزنا . . وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا . .

قلت له : ربما لهذا السبب لم يفسر النبى ﷺ القرآن الكريم ؟

قال : لو أن رسول الله فسر القرآن ما كان أحد يستطيع أن يزيد عليه أبـدا . . ومن هنا فسر النبى الأحكام المطلوبة التى لها عقاب وثـواب . . أمـا الكونيات التى سوف تظهرها الحياة يجمدها . . لأن رسول الله لو فسر القرآن ما استطاع أحد كما قلنا أن يفسره . . ومن هنا يقول القرآن الكريم : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمـه الـذين يستنبطونه منهم » . . إذن هناك استنباط لأولى الأمر الذين سوف يأتون فيما بعد ، ولو أن رسول الله فسر القرآن وأعطى عجـائبـه كما كان رسـول الله يقـول فيه : « لا يخلق على كثـرة الرد ولا تنقضى عجائبه » وصدق قول الله فيهم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . .

إذن النص . . يبـين الـرسـول الأفعـال التى إذا فعلتها تثاب أو تعاقب لأن الجميع فيها سواء . . ولكن ماذا يحدث لو أننى أعرف أن الأرض كروية ؟ لا شىء يحدث .

إذن الــرسـول لم يفسر القـرآن . . لأنـه لو فسره لإلتـزمنـا به وما استطاع أحد أن يتجاوز حدوده . .

المحكم والمتشـابه

*** فضيلة الإمـام . . هل يمكن أن نلقى الأضواء على قضية المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم ؟**

وقال الشيخ الشعراوى :

ـ هذه مسألة أنا أجل عقول العلماء أن يختلفوا فى أمرها إلا إذا كانت جهة الفهم مختلفة متفككة . .

لنأخذ المحكم والمتشابه أيضا من القرآن ، إنه يقول :

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » . .

متشابه فى الحسن والجمال والأداء وروعة البيان إلى آخره بالنسبة للقرآن . . وهذا معنى متشابه . .

إنما كلمة متشابه تأخذ معنى آخر : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » وهذا هو المطلوب لأن فيه الثواب والعقاب . .

ولكن المسـائـل التى لا يترتب عليها ثواب أو عقاب فهذه هى المتشـابهـة . . فالمتشـابـه يأتى فى الأمـور التى ليس للتكليف فيهـا مدخل . . أما فى الأمور التى للتكليف فيها مدخل فيجب ألا يكون فيها متشابه . . وهذا هو المحكم . . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول :

ـ « فما عرفتم من محكمه فاعملوا به . . وما عرفتم من متشابهه فآمنوا به » .

إذن : المحكم للعمل . .

المتشابه : لمرتبة الإيمان . .

ويوضح الشيخ الشعراوى كيف أن وسائل الإدراك لدى الإنسان محدودة . . ومن هنا تأتى أهمية الإيمان بالمحكم والمتشابه ، لأنه من عند الله . . وما دام من عند الله فالإيمان به من صميم الإيمان . .

المهــدى المنتظــر

*** ليس فى القرآن الكريم آية واحدة تنص على ظهور المهدى المنتظر ، ومع ذلك يصر البعض على ظهور المهدى الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . .**

قال الشيخ الشعراوى :

- ومن قال لك أن القرآن جاء ليبين كل الأحكام . . القرآن جاء معجـزة فقط . . ولمس من الأحكام أصولها ، وترك للذى نزل عليه القـرآن أن يشرع ، وهى السنـة . . « **ومـا آتـاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » . .

إذن فالـرسول له إتيان . . أى أن التشريع كله ليس فى القرآن ، فالقرآن معجزة . . لمس الأصول تشريعا ، ثم فوض الرسول بالتشريع . .

وقال الشيخ الشعراوى :

- الخلاف يهدم كل ادعاء . . فكل من ادعى أنه المهدى المنتظر يطلب أشياء لم يطلبهـا الـرسول ، فهل هو جاء هاديا أم مهديا . . فليس

من مهمته أن يأتى بشىء جديد . . ثم بعد ذلك هب أنك آمنت بها أو لم تؤمن . . ماذا يزيد أو ينقص . . أى أنه علم لا ينفع وجهل لا يضر . .

المسيخ الـــدجال

*** المسيخ الدجال . . هل هو رمز للشر أم أن هناك من يأتى بالفعل مجسدا ، وله هذا الاسم ؟**

وقال الشيخ الشعراوى :

ـ كلمة المسيخ تعنى من يمسخ الحقائق . . وكلمة دجال تعنى من يأتى بأشياء لا يقبلها العقل . . فالمسيخ الدجال رمز لكل دجاجلة الأرض . . وكل من يريد أن يمسخ حكما هو مسيخ دجال . .

وهذا لا يعنى أن يأتى من يدجل على الجميع . . وصورة الدجل تنحصر فى شىء . . ثم تتسع دائـرة الـدجـل . . ومع ذلك نقول أيضا : أنه علم لا ينفع وجهل لا يضر . .

ثم لماذا لا نأخذ أيضا كلمة المسيخ الدجال على أنها رمزية عندنا الآن . . وستكون حقيقة فيما بعد . .

التصـوف لـه محاذيـر

هنـاك نقطة هامة أردت أن أثيرها مع فضيلة الإمام الشعراوى حول التصوف . . وما له من محاذير . . ولم أكن أهدف إلى الحديث حول معنى الصـوفية . . وكيف دخلت هذه الكلمـة قاموس الفكر

الاسلامى . . لأنه معروف أن التصوف السنى لا يتنافى مع الكتاب أو السنة . . ولكن هناك ما يطلق عليه فى الفلسفة التصوف الفلسفى . . وكثيرا ما يختلط الأمر . . وهنا يتبادر تساؤل حول محاذير التصوف . .

قال الشيخ الشعراوى :

- هل تريد لفظ كلمة الصوفية أو اشتقاقها أو مدلولها ؟
- لا . . أريد الحديث حول المحاذير . .

- أولا : فكرة التصوف كيف نشأت ؟

صمت الشيخ قليلا ثم تحدث فى هذا الموضوع الهام وقد بدأ بالتساؤل ثم الإجابة :

ويقول الشيخ الشعراوى :

البعض يقول أن الخلوات لم تكن موجودة فى عهد الرسول ، ونحن نقول لمن يقول مثل هذا الكلام : كن عادلا ، ومن الذى كان يخلو عن مجلس رسول الله . . وكيف تأتى الخلوة فى عهد الرسول والصحابة . . ولكن الخلوة تأتى عندما يعم الفساد . . ومن هنا تأتى أهمية البعد عن الفساد . . وهناك من يستطيع أن يعيش وسط الفساد وله من قوة الإرادة ما يبعده عن الفساد . . ومن ذلك قال القائل :

ليس زهدا تصوف من تقى
فر من غمرة الحياة بدينه
إنما يعرف التصوف فى السوق
بمال ومطمع وفتونه

والذين لم يستطيعوا أن يعيشوا وسط مجتمع فاسد وآثروا العزلة هربا من الفساد وتصوفوا . . ماذا يضر فى ذلك ما داموا يبغون الصلاح . . وهذا ينطبق عليه . .

وإن تعض بأصل شجرة ، فإذا رأيت هوى متبعا ، وشحا مطاعا ، وإعجاب المرء بنفسه ، فعليك خاصة نفسك .

فقد نشأت فكرة التصوف للهروب من الفساد . . والعودة إلى الله . . والتقشف فى المأكل والملبس . . فلبسوا أخشن الثياب . . وكان الصوف . . وتفرغوا للعبادة والطاعة ، فالصوف كان لبس الشظف . . ومع ذلك الذى يلبس الصوف الآن يلبس تحته الثياب الناعمة ، ففكرة التصوف هى اعتزال مجتمع فاسد . . ومادام اعتزال مجتمع فاسد، فلا تحتج بأنها لم تكن أيام الرسول لأن أيام الرسول كان الكل يتمنى الالتقاء بالرسول وصحابته . . فالذى عزل نفسه عن الوجود . . عزل نفسه لأنه لم يعجبه ما فى الوجود . . واتجه إلى الله . . فأخذ فى التعبد . . ومن هنا نتعبد بما أمرنا الله به . . وليس التعبد باقتراحك أنت . . بل تتعبد بنفس ما أمرنا الله به . . من صلاة وصيام وزكاة . . فأنا لا أتعبد إلا بأمر من المعبود، والتقرب والزيادة من جنس هذه العبادات ولكن لا أبتدع . . والحديث القدسى يقول : ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه . . ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل (أى بجنس العبادات ولكن بالزيادة) . . حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . . وبصره الذى يبصر به . . إلخ . .

إذن عندما ينقطع للعبادة من جنس ما افترضه الله يصبح له إشراقات . . هذه الإشراقات تغرى الإنسان أن يزيد إلى أن يضيق

الزمان بعبادته . . وعندما يرى غير المتصوفين ذلك يلتحمون به . . ويصبحون أتباعا . . الأتباع شدهم ما رأوه من إشراقات وفيوضات من غير نواميس الكون . . فيقتدون به . . ماذا يحدث . .

إن الذى بعد عن الدنيا يذهبون إليه بالدنيا . . الذى نفحهم به نفحة قد لا تكون مقصودة . . فإذا كان قد بعد عن الدنيا فقد أوحى الله إلى الدنيا « من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه » . .

فيرى الأتباع ما أصبح عليه من النعيم فيتساءلون عما وصل إليه من هذا النعيم، ويرغبون إلى الوصول إلى ما وصل إليه . . أى أنهم يريدون النعيم لا الدين . . والذى زاد من هذا أنها تورث . . وتتدخل السلطة الزمنية الدنيوية . . فإذا بنا نرى أن أبناءه الذين رباهم على منهج واحد يختلفون بعد موته . . فإذا بهم ينظرون إلى معطيات التصوف الدنيوى لا التصوف . . ففسد التصوف . .

تخلف المسلمين

*** قلت للشيخ الشعراوى : من الملاحظ أن دول العالم الإسلامى كله تقع فى دائرة العالم الثالث . . ما سر تخلف المسلمين ؟**

وقال الشيخ الشعراوى :

- تخلفهم يرجع إلى أنهم مسلمون جغرافيا لأنهم لو كانوا مطبقين الإسلام ما اختلفوا إلى دول . . لقد حدث تخلفهم . . وأصبحوا فى دائرة العالم الثالث لابتعادهم عن الدين . . فالدين ليس مرتبطا بالتخلف . . وإلا فلنقرأ التاريخ ، لقد كان المسلمون الدولة الكبرى

المتقدمة الأولى منذ ألف سنة . . لقد أعطى هارون الرشيد الساعة إلى شرلمان ملك فرنسا . وقد تصور شرلمان هذه الساعة تعمل بفعل الشيطان . . لأنهم يعيشون فى أوربا فى ظلام العصور الوسطى . .

فالدين جاء ليوضح الأمور التى لا خلاف عليها . . وأما الأمور التى يمكن الخلاف فيها فتركها للناس . . المسيحية حجرت على العقل فتأخرت ، فلما أخذوا من الإسلام تقدموا ، فلقد تقدمت أوربا عندما تركت دينها ، ونحن تأخرنا عندما تركنا ديننا . .

تخلف الأمم الإسلامية الآن شهادة للإسلام ، لأنها لو تقدمت مع إهمالها لمنهج الله وعدم توظيف دينه فى الأرض لقالوا أن سبب تخلفها هو التمسك بالدين ، وهذا غير صحيح . . لأن الإسلام ساد الدنيا كلها يوم كان المسلمون متمسكين به . .

التراث والحضارة

*** قلت للشيخ الشعراوى : البعض ينادى بالعودة إلى التراث والبعض الآخر يرى ضرورة الأخذ بحضارة الغرب المادية دون أن ننسى قيمنا الروحية . . فما رأيك فى هذه القضية الهامة التى يدور حولها جدل طويل ؟**

قال : التراث كتثقيف منسوب له نسب فى المجد . . وقد مرت عليه ظروف كان الدين هو العصب . . ولنعلم أن كل قضية من قضايا الكون لها نسب عندنا ، ولكن عندما نأخذ من الغرب سوف نحجم عن التراث لغة وعقلا . . وهذا مقصد الغربيين . . عندما دعوا إلى الكتابة بالعامية . . وهم يقصدون أن تسود اللهجات المحلية

فننفصل عن الركب، الوحدة الجامعة لنا، وتتحول البلاغة والفصحى إلى تخلف . . ويريدون بذلك ضرب لغة القرآن . . ويتمادون فى غيهم فيوحون إلى الكتابة باللغة العامية فيستطيعون بذلك أن يقضوا على العربية لغة القرآن الكريم . .

أدلتهم كلها متهافتة . . فهم يحاولون إبعادنا عن التراث . . مع أنه لا تعارض بين التراث والارتقاء . . إلا إذا جعلنا منهجهم واحدا . . وليس هناك علاقة بين المنهجين . . فنحن نسرق بعضنا من البعض الآخر عن طريق الارتقاءات . . والمسيحية فى أوربا مسيحية سياسية ، إن المسيح قال : إنما جئت لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة . .

إنهم يحاولون هدم الإسلام . .

سكان العوالم الأخرى

*** قلت له : من المعروف علميا أن الكون بالغ الاتساع بما لا يمكن تصوره حتى بالخيال . . وأن هناك ملايين الأراضى تشبه أرضنا . . فهل تعتقد أن هناك مخلوقات فى هذه العوالم المجهولة عنا . .**

وأجاب الشيخ الشعراوى :

- فى مجرتنا مليون مجموعة شمسية . . وهى واحدة من مليون مجرة، وهذا يبين مدى عظمة ملك الله . . فما الذى يستبعد وجود مخلوقات وأنبياء ورسل . . وقد قال البعض أن هناك مخلوقات . .

العظمة أن توجد المتماثل : وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . . كيف تفسرها ؟

وتمضى عقارب الزمن سريعا . . قرابة ثلاث ساعات ويتداعى إلى ذهنى قوله :

- إذا قال الإنسان بلسانه : أشهد أن لا إله إلا الله ، ولم تواطىء قلبه . . فهل يكون ذلك كذبا أم غير كذب ؟ يكون كذبا . . فهم لا يقولون إنك لرسول الله . . وإنما قالوا نشهد أنك لرسول الله . . فربنا قال لهم إنكم كاذبون فى ماذا ؟ . .

فى المشهود به أم الشهادة ؟ أما المشهود به فهو رسول الله . . وهو رسول الله حقا . . والله قال : والله يعلم إنك لرسوله . . لكن : هو كذبهم فى ماذا ؟ . . فى قولهم : نشهد إنهم قالوا ذلك بأفواههم ولم يقولوها بقلوبهم .

والشهادة المفروض فيها أن يواطىء اللسان القلب، هذا من ناحية عقيدتها، ويتقنها من ناحية مدلولها . . كلمات تقال وما دمت تشهد أن لا إله إلا الله فسير كل نظام على نظام هذه الشهادة لا إله إلا الله . . لا معبود إلا الله . . ولا خضوع إلا لله . . لا تصرف إلا بالله . . الأسباب وإن أعطت هى من فعل الله . . وإن أخذت هى من فعل الله . .

إذن لابد أن تشيع هذه العقيدة فى كل تصرفاتك . . فمعناها أن يكون اللسان فيها موافقا القلب . . وهذا من ناحية الاعتقاد واليقين . . وبعد ذلك انسحابها من ناحية السلوك العام أن نخوض

نظام حركـة الحياة . . أنـه لا إلـه إلا الله . . فى كل مظهـر من مظاهرها . . فلا غنى . . ولا قوى . . ولا حاكم . . ولا أى شىء له شىء غير الله . .

لذلك قد تسأل : ما الذى أتعب كفار قريش فى أن يقولوها ؟

والجواب هو علمهم بمطلوبها . . فلو كانوا عارفين أنها مجرد كلمة تقال لقالوها . . إذن فشهادة أن لا إله إلا الله لا تكون شهادة إلا إذا وافق اللسان فيها القلب ، هذا من ناحية اعتقادها . . وبعد ذلك يجب أن تنسحب على كل حركة الحياة فى الإنسان فلا يشهد إلا أن الله هو الفـاعل . . وهو القادر . . وهو المعطى . . وهو النافع . . وهو الضار . . وكل الأسباب تحت يد الله . . إن شاء جعلها تعطى . . وإن شاء لم يفعل . .

سـياحة فـكرية

— ٢ —

ليس هذا الحوار مع الشيخ الشعراوى محاولة لاكتشاف أعماقه وفكره . . وإنما هى محاولة للاقتراب من ينابيع المعرفة التى تدفقت منها فيوض علمه واجتهاداته فى الدين . . والحوار يمضى من طفولته إلى رحلة حياته مرورا بالأزهر الشريف وحتى دوره كداعية إسلامى . .

ويتحدث الشيخ الشعراوى عن أسرار الحج . . وما الذى نطبقه عند تطبيق الشريعة . . وما دور الفلسفة فى الفكر الاسلامى . .

* فى البداية نقول أن الشيخ الشعراوى هو شخصية نادرة ينطبق عليها قول المتنبى : رجل ملأ الدنيا وشغل الناس . .

وذهبت إليه قبيل الظهر . . وكان الرجل جالسا فى شقته المتواضعة فى حى الإمام الحسين وحوله بعض معارفه . . أو أهل قريته أو مريديه . . لست أعرف بالضبط . . وبتواضع العلماء وكرم ابن الريف كان ترحيب الشيخ الكبير . .

وسألته : علماء النفس يرون أن شخصية أى إنسان تتكون خيوطها الرئيسية فى فترة الطفولة . . ترى ما الذى تركته الطفولة من بصمات على حياة الشيخ الشعراوى ؟

وقال الشيخ الشعراوى بنبراته الهادئة :

ـــ الطفولة تترك بصماتها بلا شك فى حياة الإنسان . . فهى فترة استقبال الإدراكات . . وهذه الفترة تبدأ عندما ينفصل الولد عن أمه . . إلا أن الإدراكات تدرك أولا عن طريق السمع . . ثم العين . . وبعدها تأتى بقية الإدراكات لتكون المعلومات . .

ونحن نخطىء عندما نعتقد أن الطفل يأخذ المعلومات عندما نعطيه هذه المعلومات . . ولكنه يأخذ معلومات ذاتية بواسطة إدراكاته . . وإلا فما الذى علمه التكلم . . إنه يسمع ما حوله . . ثم يقلد الحركات التى يراها . . فالذى ينشأ فى بيت متدين مثلا . . ويشاهد والده وهو يصلى فيقلده . . فانطباع الطفل يأتى منذ مولده فإذا أدركنا هذا فعلينا أن نلاحظ ذلك فى تربية الطفل حتى لا يلتقط إلا كل ما هو مفيد . . وبالتالى ينمو إنسانا سويا . . حريصا على القيم . .

أما إذا تركنا الطفل دون ملاحظة ذلك حتى تأتى فترة الشباب ونقول هيا نربى الشباب . . نقول لهم هذه تربية خطأ لأن الشباب لا يربى . . الشباب تجاوز منطقة التربية . . لأن التربية تعنى طاعة مربيه . . افعل كذا ولا تفعل كذا . . وهذا يلغى ذاتيته . . ولكن عندما تكون له ذاتية . . لا يمكن أن نقول لابد أن نربيه إلا إذا شعر أنه فاته قطار التربية وهو طفل ويريد أن يستدرك الحياة . . ومن هنا لابد أن يتنازل عن ذاتيته ليتلقى التربية . .

فمثلا نحن نتحكم فى سلوك الطفل . . كيف يأكل . . كيف يشرب . . كيف يلبس . . ولكن تأتى مرحلة من العمر يرفض فيها

هذا التوجيه . . فهو يريد أن يتصرف فى أمور حياته ومستقبله كما يريد هو، لا كما يريد أبواه . . لأنه أصبحت لديه ذاتيته . . فمعنى التربية إعطاء طاقة من القيم موجودة عند المربىِّ ومفقودة عند المربىَّ وهنا يتبادر سؤال : متى تكون له الذاتية ؟ . .

ــ عندما يكون قادرا . .

ــ حين يصبح قادرا على إنجاب مثله . .

فالمطلوب منا أن نستغل طاقته . .

لو لم أكن أزهريا

*** قلت له : مولانا الإمام . . لو لم تكن دخلت الأزهر الشريف ماذا كنت تتمنى أن تكون ؟**

وقال الشيخ الشعراوى : كنت فى باكورة حياتى أتمنى أن أكون مهندسا أو طبيبا أو ضابطا . . من هذه الوظائف المرموقة فى المجتمع . . ولكن عندما تم نضجى لم أجد أحسن من هذا التخصص الذى تخصصت فيه . . لأن الدنيا أتفه من أن تكون غاية . . لأنها لو كانت غاية تصبح هذه مصيبة . . فنحن متحدون فى غاية رغم اختلاف جنسياتنا . . ولكن هذه لا نتساوى فيها . . فهى إذن ليست الغاية فالحياة إذن لو كانت غاية لتساوينا فيها . . ولو كانت غاية ما كانت الأشياء التى تخدمنا أطول من حياتنا . . كالشمس والقمر مثلا . . إذن فيجب علينا أن نبحث عن الغاية غير هذه الدنيا . . إذن فهناك بالفعل حياة أخرى . . فالمؤهل الذى يخدمنى

نحو الغاية الخالدة . . قد أتعلم الطب . . قبل أن أتمه أموت . . أو أتعلم الهندسة أو أموت قبل أن أبنى بيتا . . إذن لابد أن أبحث عما ينفعنى فيما بعد هذه الحياة . . وهذا هو الذى توصلت إليه بحمد الله . .

التقريب بين المذاهب

*** قلت له : كان هناك تفكير فى التقريب بين المذاهب الإسلامية فما رأى فضيلتك فى هذا ؟**

وقال الشيخ الشعراوى : نقرب بين المذاهب، هذا يعنى أننا لم نفهم سر الاختلاف . . لو فهموا سر الاختلاف لما قالوا نقرب بين المذاهب . . ولكن يجب أن نقول يجب أن نتعايش سلميا بين المذاهب . . ولذلك أنصف العلماء عندما قالوا :ـ رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب .

المشرع لو كان يريد الأمر لا خلاف فيه . . لم يكن يعدل عن عمله . . فقد أحكم النص فى بعض الأمور . .

فالانسان لم يترك مختارا ، ولا هو مقهور فى كل شىء ، فهو مختار فى أمور ومقهور فى أمور . . فهناك أمور لازم أن نتفق فيها وأمور نختلف فيها ، لأن الناس جميعا لا يكونون على وتيرة واحدة . .

فمن المستحيل أن يكون العالم كله أطباء أو مهندسين . . أو . . فلابد من الاختلاف حتى نؤدى أغراض الحياة . . فليس من المعقول أن نعرف كل شىء . . إن التخصص فى كل شىء مستحيل . .

فلابد من الاختلاف . . فلا تقل ننهى الخلاف وإلا عارضت حكمة من أراد أن نختلف . .

إن الله احترم فينا الإرادة . . فأعطانا الاختيار ، فنختلف فيما لا يفسد الكون . . فما دام المشرع يريد أن يعطينا عدم الاختلاف هل كان يعجزه ذلك . .

نرى فى «وجوهكم» لم يحدد . . ولا اختلف أحد فى تحديده. ولكن اختلف فى تحديد اليد . . هل هى نهاية الكف أم عند الرسغين أم إلى المرفقين هنا كان اختلاف . . بينما رأى البعض الآخر وعندما قالوا « امسحوا برؤوسكم » . . فالباء هنا تجىء للكل . . والبعض . . أى أذن بالخلاف . .

يجىء النبى عليه الصلاة والسلام بعد غزوة الأحزاب ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يؤدب بنى قريظة . . قال النبى عليه الصلاة والسلام :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصل العصر إلا فى بنى قريظة . بعض الناس اختلفوا . . أناس صلوا عندما جاء وقت الصلاة وآخرون قالوا نؤجل الصلاة حتى نصل إلى بنى قريظة ، وقد أقر الرسول فهم الطرفين .

فكل حدث يتطلب زمانا ومكانا . . فالصلاة تتطلب زمانا معينا . . من هنا فالذين صلوا العصر وخافوا غياب الشمس رجحوا عنصر الزمان ، والذين رجحوا عنصر المكان رجحوا تأخير الصلاة حتى الوصول إلى مكان بنى قريظة . .

فالاختلاف كان مقصودا من المشرع ليلائم بين التشريح والمشرَّع له ، المشرَّع له محكوم بقانونين . .

قانون القهر فى أمور . .

وقانون الاختيار فى أمور . .

فأعطاه القهر فى الأحكام التى لا خلاف فيها ، والاختيار فى الأحكام التى اختلف فيها . .

فلا هو وضعنى فى قالب حديدى مطلق ، ولا هو تركنى منفلتا أعمل ما أشاء ، فالمراد فى الأمور المحكومة لا ندخل الاجتهاد بينها فى الأمور المتروكة أن نجتهد فيها دون أن يكفر بعضنا بعضا بل نتعايش معا . .

*** قلت للشيخ الشعراوى : لندخل إلى موضوع الفلسفة الإسلامية . . تلك الفلسفة التى حاولت التوفيق بين العقل والنقل كما يقولون ؟**

ـ البحث من أساسه خطأ . . لأن الفلسفة نتاج فكر بشرى ، والأديان حصيلة استقبال إلهى . .

الفلاسفة عندما نظروا فى الكون لم يكونوا منطقيين مع أنفسهم لأن هناك علما ماديا وعلم ما وراء المادة (الميتافيزيقا) . . ولكن ما الذى قال لك أن وراء المادة شيئا يبحث عنه . . أنت تتعقله . .

وقال الإمام الشعراوى : إن التعقل شىء والتصور شىء آخر . .

*** ماذا يعنى التعقل وماذا يعنى التصور ؟**

ـ الله سبحـانـه وتعـالى يريد منـا أن نتعقله . . أى نفهمـه بعقلنا . . أن ندرك أن هناك قوة تقف خلف هذا الكون . . ولكن ما اسم هذه القوة . . ؟

هل يمكن أن تصل إلى اسمها بالعقل ؟

الجواب بالنفى . . إذن فهذه القوة هى التى تبلغ عن نفسها . .

ويضرب مثلا لتوضيح فكرته : لنفترض أننا نجلس الآن ، فإذا بطارق يطرق الباب . . نحن جميعا نعقل أن وراء الباب طارقا . . وبدأنا ندخل عقولنا فى تصور الطارق ، من هو ، ما شكله . . هل طويل أم قصير؟ رجل أم امرأة ؟ ما اسمه ؟ . . هنا اختلفنا . .

أمـا إذا وقفنا عند معلومة أن طارقا بالباب فقط ثم سألناه عن اسمه وهدفه وجاءت إجابته واضحة نكون قد وصلنا إلى اتفاق . .

إذن فالـذى أتعب النـاس هو الخلط بين التعقـل والتصور . . وأرادوا أن يتصـوروا الله تعالى . . فنقول لهم : هذا ليس شأنكم . . فالله عز وجـل هو الـذى يعلن عن نفسه : أنا الله . . ومرادى كذا وكذا . . من أطاعنى فله الثواب . . ومن عصانى فله العقاب . .

لكن الفلاسفة أقحموا أنفسهم فى المسألة فاختلفوا ، فمنهم من يقول : الله هو العقل الأول . . ومنهم من قال هو العقل الثانى . . ومنهم من قال هو النفس الكلية .

وكـل هذا كلام عبـارة عن هراء . . كما أن للفلاسفة مدارس مختلفـة . . ولم يتفق فيلسوف مع فيلسوف . . لأنهم تعرضوا لأشياء ليست فى منطقة عقولهم . . ومادام الانسان أصبح حائرا فهو إذن فى

حاجـة إلى من يبلغه الحقيقة . . إلى من يرشده إليها . . وهذه هى مهمة رسل الله . . مهمتهم التبليغ عن الله عز وجل . .

فنحن تعقلنا وجود قوة . . ولكنا نجهلها ، فمن يخبرنى عن هذه القـوة وعن ذاتهـا ؟ . . إن اسمى كذا . . وصفاتى كذا . . ويختار رسلا من بين عباده يختصهم بالمعجزات . . إلى آخره . .

والإنسـان يتسـاءل كيف جاء إلى الحياة . . وإلى أين المصير ؟ وما هى مهمته فى هذه الحياة ؟

ويجيبه الله عن هذه التساؤلات . . بأنه شاء أن يجعل فى الأرض خليفة ، فصور جسم الإنسان من طين . . ونفخ فيه من روحه . . فدبت فيه الحياة . .

ولكن كيف دبت الروح فى هذه المادة ؟

الإجابة : أن الروح من أمر الله . .

كان يجب على الفلاسفة أن يتعقلوا القوة لا أن يتصوروها . . والتصور والعقل على وفق ما عرفه فى الحوادث . . وما دام معروفا فى الحواس أصبح من علم المشهد . . فالفلسفة فكر بشرى . . وظلت كلمة الفلسفة تشمل كل ما هو معلوم . . أى كل العلوم . . ولكن الفلسفة توهت الناس . .

*** قلت له : يقـولون أن الإمام الغزالى بهجومه على الفلسفة والفـلاسفـة استـطاع أن يوقف نشـاطهـا فى المشرق العـربى لعدة قرون . . وحجر على نشاطها . .**

وقال الشيخ الشعراوى : لا . . لا تقل حجر على الفلسفة . . ولكنه بعد أن كشف زيفها وهاجمها كشف ما فيها من زيف . .

والرسول عليه الصلاة والسلام يفرق بين نواميس كونية يتساوى كل الناس فى فهمها ، وعلم من الله لا يتعداه ، وهو علم المنهج الذى لا تختلف فيه الأهواء . .

فعلم الأهواء سوف تختلفون فيه . .

والرسول يقول : أنتم أعلم بشئون دنياكم . بمعنى الأمور التجريبية المعملية . . فقد حذر علماء الدين أن يتدخلوا فى مثل هذه الأمور . .

فالنبى عليه الصلاة والسلام نفسه ضرب بنفسه مثلا عندما طلب من الناس ألا يؤبروا النخل ولم يثمر النخيل ، فقال لهم : أنتم أدرى بأمور دنياكم . . أى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ضرب مثلا بنفسه بأنه أخطأ فى أمر من أمور الدنيا . . وبالتالى فعلى رجال الدين ألا يقحموا أنفسهم فى أمور ليست فى تخصصهم . . كما فعلت الأديان الأخرى عندما طالبوا بإعدام جاليليو مثلا لأنه قال بكروية الأرض . .

تطبيق الشريعة كيف يكون ؟

*** قلت له : هناك قضايا مثارة الآن حول تطبيق الشريعة . . وهناك من يقول أنه لا اعتراض على تطبيق الشريعة لأن الشريعة فيها سعادة البشر ، وخالق البشر أدرى بشئونه من البشر أنفسهم ، بعكس القوانين الوضعية التى تخضع لما يخضع له البشر من أهواء . . إلا أن الاعتراض أن تفسير الأحكام الشرعية سوف يكون تفسيرا بشريا . .**

ومن هنا تتدخل أهواء البشر بما يخدم مصلحة الحاكم الذى قد يتصور أنه يحكم بالقانون الإلهى . . ويفسر ذلك حسب أهوائه ، وبالتالى يكون له من النتائج ما لا تحمد عقباه . .

فما رأى الامام الشعراوى ؟

وقال الشيخ الشعراوى :

ــ من الذى قال أنها تفسر تفسيرا بشريا . . هناك أمر . . ترك الله فيه أن نختلف . . وصولنا بأى رأى يتحمله النص لا يشكل فسادا . . فالذى تركنا نختلف فيه لا يشكل فى الكون فسادا . . أما الذى يشكل فى الكون الفساد فهو الاختلاف فى النص المحكم . .

ثم تعالى قل لى ما الذى اختلفنا فى تكوينه كم آية . . فلنتفق . . فالمحكم يجب ان نطبقه . . والذى نختلف فيه نطبقه على أى وجه . .

الحج له أسرار

*** قلت للإمام الشعراوى : هل يمكن تفسير رموز الحج ، أم أن هذه من الأمور الغيبية التى يجب أن نقوم بها كما أمرنا الله سبحانه وتعالى ؟**

وقال : ـ أنا أريد أن أقول أن الحق سبحانه وتعالى عندما شرع أشياء لم تكن واضحة حكمتها أمام العقل ، وعندما تقدم العلم اتضحت الحكمة ، ولكن هل ننتظر حتى نعرف العلة . . بالضبط كما أمرنا الله عندما حرم الخمر . . فلم يكن الناس وقتها يعرفون أضرار الخمر كما نعرفها اليوم مع تقدم العلم . .

فالأمر يختلف بين استقبال الأمر من المساوى والأعلى منى . . الأمر من المساوى لابد أن أسأل لماذا نفعل ؟

والأمـر من الأعـلى منى لا يسأل . . فكونه أعلى منه يقبل منه الأمر . . قال سبحانه وتعالى : « اتقوا الله ويعلمكم الله » .

فعنـدمـا أومن بالله . . فهذا يعنى أعطيته صفات الكمال . . فالأمر الذى لا يتساوى فيه الآمر والمأمور ، فيه يأخذ المأمور بما يراه الآمر . .

فالمـريض عندما يذهب للطبيب مثلا ، وكتب الروشتة ، إنك لا تمسك يده . . وتسأله عن الدواء الذى كتبه لأنه أعلم به منك ، فإذا كنت طبيبـا تقـول أنه كتب لسبب كذا . . ولكن فاته كذا . . فالمتساوى فى العلة لابد أن يتساوى . . فهل هناك مساو لله . .

فالمؤمن لابد أن ينفذ أوامر الله . .

ولكن هل يعنى هذا ألا يحوم عقله حول حكمته ؟

إنه اصطياد حكمة مناسبة . . ولكن هل عطلت العمل حتى تعرف . .

فحكمة الحكيم صفة من كماله . . فإذا عرف العقل شيئا فإنه لا يعـرف أشياء . . ولـو لم يكن فيهـا إلا الالتـزام بما أمر الله فهذا يكفى . . والآن نحن نعرف لماذا حرمت أشياء . . كأكل لحم الخنزير مثلا . . ولكن هل نعطل ما أمر الله حتى نكتشف العلة ؟ . .

والآن مثلا نقرأ عن المرض المنتشر فى أمريكا وهو مرض الإيدز لأن الالتقاء الجنسى على غير ما شرع الله . . وهذا أمر طبيعى . . لأن التصرف الجنسى وفق ما شرع الله على الزواج بكلمة الله . .

فالحج ركن من أركان الإسلام . . ولكن هل هو ركن من أركان المسلم ؟

يعنى لا يكون مسلما إلا إذا حج . .

ويجيب : طبعا لا . . فهناك فرق بين ركن الإسلام وركن مسلم . .

أولا : أركان الإسلام الخمسة ليست هى الإسلام . . ولكن هى التى بنى عليها الإسلام . . فالإسلام شىء آخر . . إنه حركة الحياة . .

*** فما هى الأسس التى تكون فى الإسلام وفى المسلم ؟**

ـ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . والصلاة . .

ـ تكـون فى الإسـلام وقـد لا تكـون فى المسلم . . مريض فلا يصوم . . فقير لا يزكى ولا يحج . . ولكنه آمن أن الزكاة والحج من أركان الإسلام . . إنما لم يعمل بها فهى ركن فى الإسلام وليست ركنا فى المسلم ، ولذلك يقول الله تعالى :

*** « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . . ومن كفر » . فما تفسير من كفر ؟**

الكفر هنا ليس معناه الحكم على من لم يحج بالكفر . . ولكن الذى كفر بالقضية . . أى أن الحج ركن من أركان الإسلام . . وهذا شىء وأن تقوم به شىء آخر .

فأركان الإسلام خمسة وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . . فالذى يصلى لا نقول عليه المصلى فلان ، ولا نقول على الذى زكى المزكى فلان ولكن نحن نقول على الذى حج أنه الحاج فلان ؟ لماذا ؟

لأن كلمة الحاج دلت على أن الحاج استوعب كل أركان الإسلام . . فسار مسلما بأركانه الخمسة لأنه ما حج إلا عن استطاعة . . وهى تحتاج إلى قدرة بدنية فلابد أنه صام . . وقدرة مالية فلابد أنه زكى . . فالحاج قد استوفى كل أركان الإسلام .

ولذلك فرض الحج مرة واحدة فى العمر فهو ذاهب إلى بيت الله . . ولكن أليست كل المساجد بيوت الله ؟

المساجد بيوت الله باختيار خلق الله . . وهذا بيت الله باختيار الله . . ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله . . فلابد أن نذهب إليه . .

مثلا . . كنا نذهب إلى القصور الملكية ونسجل الأسماء فى سجل التشريفات . . فلماذا لا نذهب إلى بيت الله . . فهو الذى دعاك . . فلابد أن تشعر وأن تذهب إلى الله فى بيته . . بالنعمة التى أنت فيها الآن . . ومادمت ذهبت إلى المنعم اترك كل شىء . . عش مرة مع الله . . ولا يشغلك أى عرض من أعراض الدنيا . . استشعر

الجـامع بينك وبين عباد الله جميعا . . واطرح التميز . . لأن الناس تتمايز بزينتها وأزيائها . . وهذه نخلعها جميعا . . ولكن عندما يجتمع الرئيس والمرؤوس عند الكعبة . . ويتساوى الجميع فى الملبس . . ونـحـن فى الحــج نتـعلم الأدب مع كل نعم الله . . لا تطيب . . لا تحلق شعــرك . . لا تصـــد صيدا . . لا تقـطع شجـرة . . كل الحركات محسوبة . . لأنك نسيت النعمة وأنت فى رحاب المنعم . . إياك والجدل . .

* أصبحت مع الناس سواء . .

* ومع الجنس الذى أنت أعلى منه وهو الحيوان لا تمتد يدك إليه . .

* النبات لا تقدم إليه .

* وبعـدهـا تدخـل الكعبة حيث تحاول أن تصـل إلى الحجر الأسود ، فأنت لا تتضامن مع الحجر . . ولكن مع أمر الله . .

* ثم تطوف حول الكعبة . لأنك تتجه إلى حيث قبلتك . .

* ثم تقوم بالسعى بين الصفا والمروة . . فالكون محكوم بناموس الأسبـاب . . إياك أن تعتمد عليها . . أى تعملها ، ولكن لاتنس المسبب وتأخذ من المشاهد الأخرى . . كرمى الجمرات . . إلخ . . كل منسك . . نجد ذكر المنعم . .

والحج يذكرنا بقصة خليل الرحمن وابنه إسماعيل . . فإسماعيل يمتثل لأمر الله عندما حاول والده أن ينفذ الرؤيا التى رآها بذبح ابنه إسماعيل . . فإسماعيل هنا يمتثل لأمر ربه . . لا لأمر أبيه ، ولذلك قال لأبيه :

ـ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين .

فإسماعيل اكتسب الثواب . . فالله رتب النتيجة على علمهما . .

ونأخذ بذلك عبرة ، أنه لا يرفع قضاء على الإنسان إلا إذا رضى به وسلم فإن رأيت قضاء لزم إنسانا فهذا معناه أنه ليس راضيا بهذا القضاء . . قد يقول باللسان أنه راض بقضاء الله فيه . . ولكن الرضا يكون بالقلب لا باللسان . .

هبــات الله

* ويتحدث الشيخ الشعراوى عن هبات الله . . وكيف أن على الإنسان أن يوقن بحكمة الله . .

فالأنثى تحزن إذا جاءتها بنت . . وهي تريدها ولدا . . أى أن عواطفها تسرقها لتهديها إلى الفطرة . .

وبعد ذلك نرى الله سبحانه وتعالى يقول : يهب لمن يشاء إناثا . . فهى هنا ابتداء بالممقوتة أولا لأنها الوعاء ثم يقول ويهب لم يشاء الذكور . . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما . .

إذن جعل العقم أيضا هبة . . لأن الواهب واحد . . فالرجل الذى لم ينجب يرى فى كل ولد ابنه وكل بنت ابنته . .

إذن أسرار الحج أكثر من أن نستوعبها ، وسر السر فيها أن نلتزم بما أمرنا الله به لأننا آمنا به إلها حكيما لا يأمرنا إلا بالخير . .

البيت المعمور : ما هو ؟

* **قلت له** : ما هو المقصود بالبيت المعمور . . هل هو بيت الله الحرام أم البيت الموجود فى السماء كما تقول التفاسير ؟

ـ إن الكعبة مبنيـة على مسافة البيت المعمّور ، والبيت المعمور فى السماء ويطوف به الملائكة وطوافنا به تشبيه بطواف الملائكة . .

دعــاء الإيمـان

* كنت قد أخـذت من وقت الإمـام الشيخ متولى الشعراوى الوقت الكثير . . وقد أطلت عليه . . رغم وجود بعض الضيوف . . وقبل أن أطوى أوراقى متأهبا للخروج سألته عن الدعاء المأثور عنده فقال :

ـ أنا عندى فلسفة للدعاء . . وهو أن الدعاء بشىء هو الإيمان منك بأنه الخير لك ، وهذا إنما يقوله من لم يرتبط بإله ، ولكن المرتبط بإله يأمن الإله على خيره . . ولكن نجعل الدعاء مظهر عبوديه . .

ولذلك فانا أدعو الله دائما بقولى :

ـ اللهم وفقنى فيما أقمتنى فيه . . فى كل ما آتى وكل ما أدع . .

وينتهى الحوار . . ولا ينتهى العطاء المتجدد لهذا الداعية الجليل . .

* * *

الشيخ الشعراوى
وحديث فى الشعر والأدب

— ٣ —

* لعـل الكثـيرين لا يعرفون إلا أقل القليل عن الشيخ محمد متولى الشعراوى كشاعر وأديب وناقد . .

فقد نال شعبية كاسحة كداعية من أكبر الدعاة الذين عرفتهم الحياة الفكرية فى الإسلام . . ولكن الجانب الآخر من حياته الفكرية كشاعر مرهف الحس والوجدان . . وأديب متذوق للأدب . . وناقد يعرف مواطن الجمال والقبح فى الأعمال الإبداعية فلا يعرفها إلا الذين اقتربوا منه . . وعرفوا أن هذه المنابع الغنية من الأدوات التى جعلته يقترب من قلوب الناس وعقولهم فى نفس الوقت : .

وهـذه محاولة للاقتراب من الوجه الآخر للشيخ الشعراوى . . وأقصد وجه الشاعر والناقد . .

* قلت للشيخ : هل يمكن أن نلقى الأضواء على قصتك مع الشعر ؟

قال : لقـد بدأنا هكذا . . بدأنا بقول الشعر . . ولقد ذكرنى المرحوم الشيخ محمد فهمى عبد اللطيف عن كتاب كنت قد طبعته ١٩٣٢ . وكان لى فيه قصيدة من الشعر بعنوان (الباكورة) . . وقد كتب هو مقدمة الكتاب ، وقال فيها أنه سمع منى هذه القصيدة منذ أربع سنوات . . أى عام ١٩٢٨ . . وكنا مازلنا طلبة فى الجامعة الأزهرية . .

ويصمت الشيخ الشعراوى قليلا كأنه يتذكر هذه الفترة من حياته ويتابع حديثه :

ـ كنت قد كونت جمعية أدبية . . وكنت أنا رئيسها . . وكان سكرتيرها الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، وكان معنا حسن جاد وطاهر أبو فاشا والمهدى مصطفى ، وأذكر أن القصيدة كانت تتكون من ٣٠٠ بيت من الشعر . .

وأذكر أن الذى حببنى فى الشعر البيئة التى عشت فيها . . فقد كان والدى فلاحا . . وكان له صديق فلاح يحفظ عيون الشعر العربى ويجيد إلقاءه . . و . . بدأت أقول الشعر . .

المعركة الوطنية والشعر

ولقد أذكت الحركة الوطنية الشعر ، وعندما مات عبد الحليم الجراحى وعلى عفيفى وعبد الحميد مرسى (عام ١٩٣٤) . . واندلعت الاحتجاجات وسقط الشهداء ضيقت الحكومة على أن يقام لهم حفل تأبين . . وكنا نصر على أن نقيم لهم هذا الحفل . . وكان معنا رجل اسمه البنهاوى تفتق ذهنه عن حيلة بأن جعل بعض النسوة يبكين . . وادعى أن جدته ماتت . . وأقيم السرادق . . واجتمعنا وحولناه إلى حفل للتأبين . . وأصبحت الحكومة أمام الأمر الواقع . . وأبَنّا الشهداء مع تعذر تأبينهم فى القاهرة . . وفى هذا الحفل ألقيت أنا قصيدتى التى قلت فيها :

نداء يا بني وطني مجاب
دم الشهداء يذكره الشباب
وهل مثل الضحايا والضحايا
بهم قد عز فى مصر المصاب
شباب بر لم يفرق وأدى
رسالته . . وهاهى ذى تجاب
فلم يجبن ولم يبخل وأرغى
وأزبد ليس تزعجه الحراب
وقدم روحه للحق مهرا
ومن دمه المراق بدا الخضاب
وآثر أن يعيش شهيد مصر
لتحيا مصر مركزها مهاب
يهون القيد فى تحرير مصر
وعذب فى قضيتها العذاب

وكان من المفروض أن المتحدث حددت له مدة خمس دقائق لإلقاء كلمته غير أنهم تنازلوا لى عن الزمن المحدد حتى أتم إكمال القصيدة . .

أعذب الشعر أكذبه

*** قلت للشيخ : ما رأيك فى القول القائل أن أعذب الشعر اكذبه ؟**

وضحك الشيخ الشعراوى طويلا، وقال: إن المقصود من الشعر طرب المواجيد، وانتشاء النفس والواقع فى الحياة لا يؤدى إلى هذا . .

فماذا يحدث حتى نؤدى هذا الهدف . . نتجه إلى الخيال . . وهذا يعطى للنفس المواجيد والانتشاء . والإنسان عندما ينظر إلى واقع الأشياء نجده كما يقول حسان بن ثابت (نكد) الشعر نكد . . يقوى فى الشر فإذا دخل فى الخير ضعف . . وقال :

- لماذا ؟

- لأن الخير فيه قيود تربطك . . والشعر فى حاجة إلى الانطلاق . . فالشاعر يريد أن يبتعد عن الواقع بغض النظر إن كانت موافقة للدين والقيم أم لا . .

- مثلا ؟

- الشاعر القائل :

مولاى إنى قد عصيتك عامدا
لأراك أجمل ما تكون غفورا
ولقد جنيت من الذنوب كبارها
ضنا بعفوك أن يكون صغيرا

إذن . . فالخير فيه قيود على الانطلاق . . بينما الشاعر يريد الانطلاق . . والمعانى فى واقع الحياة لا تعطى الشاعر القدرة على التحليق . . ولكن المعانى التى ليست فى واقع الحياة تطرب النفس . .

ولكن أليس النبى ﷺ هو القائل :

- أصدق كلمة قالها لبيد . . هى البيت الذى قال فيه :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

إذن الشعر يمكن أن يكون جميلا عندما يكون صادقا . . وهناك من الشعراء من يستطيع أن يزاوج بين الأداء الجميل الذى يستميل النفس ويستهويها ولا يخالف الحقيقة . . وقد وجد هذا فى الوصف . . فمثلا ابن الرومي عندما يصف رجلا أحدب . . يعطى صورة جميلة . . ولكنه لا يكذب لأن عنده القدرة على الوصف الفنى فيقول :

قصرت أخادعه ورق قذاله
فكأنما متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة
فأحس ثانية لها فتجمعا

هذه صورة حية . . ولكن عندما يكون للشاعر القدرة على إبراز الحقيقة فى صورة خيال لا تجنح إلى الإثم . . فهذا شىء جميل . . وهناك من الشعراء من قدم هذه الألوان من الشعر . . مثال شوقى . . الذى استطاع أن يصف حركة القلب بصورة فنية جميلة . . عندما يقول :

ولى بين الضلوع دم ولحم
هما الواهى الذى ثكل الشبابا
تسرب فى الدموع فقلت ولى
وصفق فى الضلوع فقلت آبا . .

هذا الشاعر قدم الجمال الأدائى ولم يجانب الحقيقة . .

مثلا شاعر يقول لمحبوبته :

تملك بعض حبك كل قلبى
فان ترد الزيادة هات قلبك

فهـذا الشعـر رغم جماله بعيد عن الواقع . . وعن الحقيقة . . ولكنه يطرب النفس لأنه يجنح إلى ما يطربها . .

مثلا نقرأ هذه الأبيات :

خطرات ذكـرك تستثير مودتى
فأحس منهـا فى الـفـؤاد دبيبـا
لا عضـو لى إلا وفيـه صبابـة
فكـأن أعضـائى خلقن قلوبـا

أليس هذا الشعر جميلا . . رغم ما فيه من بعد عن الحقيقة . .

مدرسة شوقى

* **قلت له : واضح أنك محب لشوقى وتردد أبياتا من شعره . .**

قال : بالطبع . . فهذه هى المدرسة التى تربيت على أدبها . . كان والـدى يصـلى صلاة الفجـر وينتظر الجرائد . . فإذا وجد فيها قصيدة لشوقى يقدمها لى ويعدنى أن يعطينى (ريالا) إذا حفظتها عندما يأتى المساء . . وكان الريال فى هذا الوقت مبلغا كبيرا . . ومن هنا أحببت شوقى . . ولقد غضبت من شوقى عندما كتب قصيدته التى مطلعها :

رمـضـان ولى هاتهـا يا ساقـى
مشتـاقـة تسعى إلى مشتـاق

هذه القصيدة هى التى جعلتنى أغضب من شوقى لما فيها من دعوة إلى شرب الخمر بعد رمضان . .

وحديث الشيخ الشعراوى فى الشعر والأدب والتذوق الفنى حديث ممتع للغاية . . إنه يأخذك إلى حديقة وارفة الظلال من العلم والمعرفة وما فى عالم الأدب من إبداعات تجذب النفس وتستهوى الخاطر . .

زينة الدنيا

وإذا كان الحديث فى الأدب قد جرنا إلى المتع الفنية . . وما فى الحياة من زينة وزخرف . . فلا أعرف لماذا سألت الشيخ سؤالا دار فى خلدى وأنا أتهيأ لأطوى أوراقى وأضع كلمة النهاية لحديثه الشائق حرصا منى لعدم الإطالة نظرا لظروفه الصحية .

قلت له :

ـ « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » . .

هل تعنى هذه الآية نهاية العالم عندما يصل الإنسان إلى السيطرة عليها علميا ؟

وقال : الكون فيه أسرار . . الكون مخلوق بقدر مقدر . . القدر المقدر يودع فى الكون كل أسراره ، وأعطى العقول القدرة على اكتشاف ما فى الكون من أسرار . . فإذا انتهت أسرار الكون التى وضعها الله . . فلا يبقى إلا أن نذهب من الأسباب إلى المسبب . هذا طبيعى فالأسباب قد خلقها لنصل إليها . . فلا يبقى إلا الذهاب

إليه . . هنـا آثار صفاته . . وتلك آثار ذاته ، فعندما تنتهى الطاقة الموجودة فى الكون ـ لا يكون هناك إلا العودة إلى الله .

وظن أهلها أنهم قادرون عليها . . إذن سوف يأتى طغيان . . وتفـريغ من الكـون لأسراره ، إذا كنتم قادرين عليهـا . . فعليكم المحـافظة عليها . . والإنسان خلق ليكون ابن أغيار فإذا وصل إلى القمة . . لابد أن ينحدر من القمة . .

ولذلك عندما قالت المرأة العربية للخليفة : أتم الله عليك نعمتك ؟

قال الخليفة : إن هذا ليس مدحا . .

ولذلك يقولون : حذار من الكمال المطلق . . لأن الكمال المطلق لله . . ويجب أن تدعو الله أن يكون فيك نقص ما . .

إذن المعايب تمائم الحفظ عن الموجود . . ولذلك فطن لها المتنبى وهو يخاطب سيف الدولة . .

شخص الأنـام إلى كمالـك فاستـعـذ
من شر أعـينـهـم بعـيـب واحـد

إذن فكـل ابتكـارات الحياة ليست لحقائق الوجود ، وإنما هى للترف فى الـوجـود . . إنما الحقائق مكفولة للخالق . . فإذا أخذت أسبابى فلا يبقى إلا الذهاب للمسبب . . إلى الخالق . .

وينتهى الحوار . . ولا ينتهى علم هذا الشيخ الجليل بتواضعه وثقافته الواسعة . . وعمق تفكيره . . وحبه وحرصه على دين الله . .

أمد الله فى عمـــره

* * *

رقم الإيداع ٤٤٧٥ / ٨٧
الترقيم الدولى ١ - ١٨٠ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩